الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

٦

الحاكم بأمر الله

تأليف: الدكتور عارف تامر

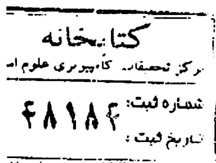
دار دمشق
دار الجيل

الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

الخليفة السادس :

الحاكم بأمر الله





تأليف

عارف تامر
دكتور في الآداب



دار
الجيل



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الطبعة الاولى

١٩٨٠ م ـ ١٤٠٠ هـ



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الخليفة الفاطمي السادس

اسمه : « الحاكم بأمر الله » . لقبه : « المنصور » . كنيته : « أبو علي » . ولد في القاهرة « المعزية » سنة ٣٧٥هـ. والدته : « أم ولد » وهي من اسرة نصرانية عريقة تنتمي إلى الطائفة الملكية القبطية⁽¹⁾. تولّى الخلافة بعد وفاة والده « العزيز بالله » سنة ٣٨٦هـ. وكان له من العمر احدى عشر عاماً . قتل في ظروف غامضة سنة ٤١١هـ. فيكون قد حكم ٢٥ عاماً . وعمّر ٣٦ عاماً .

يعتبر هذا الخليفة من أغمض الشخصيات التي عرفها العالم ، بل هو بحق لغز القرون والعصور . أثيرت حول حياته ومماته ، وطريقة حكمه الأقوال العديدة ، والاساطير الخيالية. وانه لمن الغريب أن يمدحه بعضهم ، ويرفعه إلى أعلى درجات الإنسانية ، بينما يتعرض له البعض الآخر . فينسبون إليه ما لا يخطر على بال ، أو يصدقه العقل .

كل ما نعرفه عن صباه . هو أن أباه « العزيز بالله » أحسن تعليمه . وتهذيبه وأعده للمنصب الكبير . وخاصة بعد وفاة شقيقه الأكبر « محمد » الذي مات في حياة والده وكان ولياً للعهد . وعندئذٍ استحق الحاكم الولاية الخطيرة .

كنا ذكرنا في الجزء الخامس من الموسوعة . أن والده « العزيز بالله » توفي في « بلبيس » وكان في طريقه إلى الشام لمحاربة الروم الذين كانوا يعيثون فساداً وخراباً في ربوعها . وقد استدعاه « العزيز بالله » إلى « بلبيس » قبل موته . فودعه الوداع الأخير . ونصّ على ولايته على مسمع من كبار القواد . ورجال الدولة .

ويذكر التاريخ :

ان « الحاكم بأمر الله » قابل الحدث الهام برباطة جأش . ومتانة أعصاب رغم حداثته . وعاد بجثة أبيه إلى القاهرة بموكب فخم تظلله أبهة الخلافة . وجلال الموت . وكان الخليفة الجديد يرتدي زي الخلفاء الفاطميين . ماسكاً الرمح بيده . متقلّداً السيف . وعلى رأسه المظلة . وعندما وصل إلى القاهرة . قبل المغيب خرج الناس لاستقباله . وهم ينتحبون . ويذرفون الدموع . وأخذ الحاكم بتجهيز أبيه. فتولّى غسله

قاضي القضاة « محمد بن النعمان » ودفن في المساء إلى جانب أبيه « المعز لدين الله » في أحدى حجرات القصر الكبير . وفق المراسيم المعمول بها .

وفي اليوم الثاني جلس الحاكم في الايوان الكبير يتقبل التعازي . ويسلم على الناس بالخلافة . ونودي في القاهرة والبلدان :

بأن الأمن موطّد . . فلا مؤونة ، ولا كلفة . ولا خوف على النفس . أو المال . وذكر المؤرخ المصري «المسبحي» وهو من أصدق المؤرخين . وكان صديقاً « للحاكم بأمر الله » قال : قال لي الحاكم :

استدعاني والدي « العزيز بالله » قبل موته إلى « بلبيس » وعليه الحرق والضماد . فاستدعاني إليه . وقبلني . وضمني إليه وقال : أرجو أن لا يغمى عليك يا حبيب قلبي . ودمعت عيناه . . . ثم قال : امض والعب . فأنا في عافية . . قال الحاكم : فمضيت . والتهيت بما يتلهّى به الصبيان من اللعب ، إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه . وقال : فبادر إليّ « برجوان » وأنا في أعلى جميزة كانت في الدار فقـــال :

انزل ويحك . . الله . . الله . . . فينا ، وفيك . . قال : فنزلت ، فوضع « برجوان » العمامة بالجوهر على رأسي ، وقبّل لي الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . ثم انه أخرجني إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبّل جميعهم الارض ، وسلّموا عليّ بالخلافة .



شكله ـ صفاته

كان « الحاكم بأمر الله » ذا بنية قوية متينة . فمظهره يدل على أنه من الجبابرة . . . مبسوط الجسم . . . مهيب الطلعة . . له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة . ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد . فلا يستطيع الإنسان التحديق . أو إطالة النظر فيها . وله صوت مرعب . قوي . يحمل الروع إلى سامعيه .

يقول التاريخ في وصفه :

كان منظره مثل الأسد، وعيناه واسعة شهل . وإذا نظر إلى الإنسان فيرتعد لعظم هيبته ، وكان صوته جهوري مخيف . وهو في الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الأقوياء الذين يذهبون في زهرة العمر والقوة . فقد كان والده « العزيز » أيضاً عظيم القامة . عريض المنكبين . قوي التكوين . فورث « الحاكم » عن والده هذه الخواص الطبيعية البديعة . ولم

يبددها في شهوات النفس التي ينغمس فيها أبناء القصور ، فمن المؤكد أن « العزيز بالله » مات في الثالثة والأربعين ، و « المعز لدين الله » في السادسة والأربعين . و « المنصور » في الثانية والأربعين ، و « القائم بأمر الله » في الخامسة والخمسين .

ذكر التاريخ :

ان رجلاً دفع لاغتياله ، فتمكن من الدخول عليه ، وعندما نظر إليه ، وسأله عن حاجته ؟ اضطرب . وارتعدت فرائصه ، ثم ألقى المدية ، واعترف بذنبه .

ارتقى « الحاكم بأمر الله » ذروة الفضائل ، وغاية الشرف الكامل . وظهرت مثاليته فيما أخذ به نفسه من زهد وتقشف ، وبالرغم مما ورثه من الملك العظيم ، والعز ، والجاه ، والنعيم . ومن المؤكد أنه رفض هذا النعيم الذي خلفه له والده ، وجده ، وتناسى حق نفسه ، وحق اسرته ، فأعتق المماليك ، والعبيد . وملكهم أمر نفوسهم ، وعاش كما يعيش أي فرد من رعيته . وأخذ من والدته وأخته ، وخواصه من النساء أملاكهن ، وعقارهن ووضعها بتصرف الدولة ، والشعب ، كما أبطل ما كان يستعمل برسمه الخاص من

الثياب — وكان في أول عهده يتزيا بزي ابائه من الثياب المذهبة . والعمامة المجوهرة . ولكنه انتقل بعد ذلك إلى لبس ما كان غير مذهب . أو مطرز ثم لبس الملابس الخشنة من الصوف . وكان يحب اللون الأبيض . ويتخذه شعاراً . ثم أصبح السواد لبسه بعد ذلك مع العمامة الخضراء . وأخيراً جعلها سوداء زيادة في التقشف .

وألغى «الحاكم بأمر الله» الحفلات العامة في قصر الخلافة . وأصبح يركب من غير زينة أو أبهة . وخاصة عندما يذهب إلى المصلّى . وفي آخر أيامه كان طعامه الخاص . وشربه مقتصراً على ما تدعو الحاجة إليه .

ونهى عن تقبيل الأرض بين يديه . وتقبيل يده . والانحناء. أو السجود إلى الأرض . كما ألغى استعمال كلمة مولانا . واكتفى بالقول :

«السلام على أمير المؤمنين . ورحمة الله وبركاته».

وكذلك رفض مظاهر التكريم التي كان يقوم بها حراس القصر .

ومهما يكن من أمر . فإن «الحاكم بأمر الله» لم يكن مثل ملوك زمنه . يعمل على إملاء خزائنه بالأموال . بل كان

على العكس يأخذ ما في هذه الخزائن ليوزعها على الفقراء ، والمساكين ، والمحتاجين ، والانعام بها على كل من يطلبها باستحقاق ، فكان في خروجه اليومي يحمل في جيوبه بعض الأموال لتفريقها على الفقراء . كما كان من عادته الجلوس في أحد شبابيك القصر في وقت محدد ليفرق الصدقات . فيأتي الفقراء الذين يعرفون وقت جلوسه ، ولم يكن يوزع المال وحده ، وإنما يوزع الكساء بكثرة . وقد ظهر بعصره ما يعرف « بطراز العامة » وهو ما كان يجود به على الفقراء من الأقمشة واللباس .

مما لا ريب فيه أن « الحاكم بأمر الله » قد ورث هذا الكرم ، وهذه الاريحية عن أبيه « العزيز بالله » ، الذي قال في حديث له مع عمه :

« يا عم . . . أحب أن أرى النعم عند كل الناس ظاهرة ، وأرى عندهم الذهب ، والفضة ، والجوهر ، ولهم الخيل ، واللباس . والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندي » .

ولكن « الحاكم بأمر الله » فاق أباه ، فهانت لديه الأموال ، وكان يوزعها لا على أهل مصر وحدهم ، وإنما على أناس من مشارق الأرض ، ومغاربها ، ومرة توقف ناظر المالية عن الصرف خوفاً من اختلال الميزانية فكتب إليه يقول :

« الغربة مذلة الأعناق . والفاقة مرة المذاق . والمادة من من الله الرزاق . فأجرهم على عوائدهم في الانفاق . ما عندكم ينفذ . وما عند الله باق » .

وعرف أن « الحاكم بأمر الله » . وهب الضياع . والعقارات . والأملاك العائدة ملكيتها للدولة أولاً فأولاً لمن كان يلتمسها . ويستحقها من الرعية . كما أنه أمر باستخراج الكنوز من الآثار القديمة لصرفها على الناس . ويشهد لـــه التاريخ بأن يده لم تمتد إلى أخذ مال أحد إطلاقاً .

وذكر التاريخ :

ان أحد ولاة الشام وهو « جيش بن الصمصامة » أوصى بتركته « للحاكم بأمر الله » . وكانت تزيد على المائتي ألف دينار . فجلبها أبناؤه . ووضعوها أمامه . فأخذ « الحاكم » الوصية وألقى نظرة عليها ثم أعادها إلى أبنائه . وقال لهـــم بحضرة وجوه الدولة :

« قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله . وما وصّى به من عين . ومتاع . . . فخذوه لكم هنيئاً مباركاً » .

ويشهد له التاريخ أيضاً بأنه خفف الضرائب عن رعاياه .

يسهر على راحتهم . ومنع الظلم عنهم . . . وكان يردد في كل مناسبة :

أصبحت لا أرجو ولا أتقي
إلا إلهي وله الفضلُ
جدي نبيٌ وإمامي أبي
وديني الاخلاص والعدل

أجل . . . كان « الحاكم بأمر الله » جواداً كريماً وإلى جانب الجود والسخاء . والزهد في المال . والاسراف في العطايا ، يجانب الخمرة . ويحرمها على نفسه ، كما يحرمها على رعاياه ، وهكذا بالنسبة للنساء . . . ولم يذكر التاريخ أن هذا الخليفة كان في حياته يتصف بما يتصف به معظم الطغاة الذين عرفهم التاريخ . . . لقد كان « الحاكم بأمر الله » لغزاً يصعب استجلاؤه ، وعقلية متوقدة عسيرة الفهم . . . أو قل فيلسوفاً على طريقته .

وصفه العلاّمة الألماني « ميللر » فقال :

«انه من أعجب . وأغمض الشخصيات التي عرفها التاريخ . وزاد على قوله : ان من يقرأ ما أورده المؤرخون المتأخرون من مختلف الاساطير . والقصص . يخرج بحقيقة

هي : انهم لم يفهموه . وانهم اعتبروه مجنوناً فقط . وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة . ولكن توجد ثمة شواهد واضحة على أن هذا الأمير هو أعجب من أنجبت اسرته . فقد كان أشدهم إثارة للاساطير من حوله . وان حجاباً كثيفاً قد أسبغ على صورته فلا نستطيع أن نظفر منها إلاّ بلمحات » .

ومن الواضح أن « الحاكم بأمر الله » لم يكن شخصية وضيعة ساذجة . بل كان لغز عصره . وفيلسوف زمانه . وذهنا نيراً بعيد الغور . وافر الابتكار . جم العطاء . وعقلية سمت على مجتمعها . وتقدمت عصرها ، وكان عليها أن تتبوأ في التاريخ مكانها اللائق .

وقال المؤرخ المقريزي :

« ان « الحاكم بأمر الله » عمد سنة ٣٩٥ هـ. إلى إصدار جملة قوانين بدافع الشعور الديني لاصلاح الاخلاق . وتطهير النفوس من رذائل المجتمع » .

وقال ابن خلدون :

« ان ما رمي به « الحاكم بأمر الله » غير صحيح ، ولا يقبله عقل سليم » .

وقال الدكتور جمال الدين سرور . وهو من المعنيين بالأدب الفاطمي :

« ليس هنالك ما يثبت أن « الحاكم بأمر الله » ذهب في تصوراته الدينية إلى حد الخروج على قواعد الاسلام » .

وقال محمد عبدالله عنان . وهو من الذين هاجموا الفاطميين :

« لقد ظلم التاريخ « الحاكم بأمر الله » ، كما ظلم غيره من المصلحين . . . لقد كان « الحاكم » مصلحاً على طريقته . وكان يرمي بما يصدره من القوانين . والأحكام إلى غايات خفيت على العامة لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا ، ومن هنا كان الريب في حكمتها . وكانت القسوة في تطبيقها » .

وقال عباس محمود العقاد :

« كان الحاكم يمنع تقبيل الأرض بين يديه . ولا يرضى أن تلثم يداه . وركابه . وأمر ألاّ يزيد الناس في السلام حين يدخلون عليه على قولهم : السلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته » .

وقال العلاّمة المستشرق « دوزي » :

« ان قوانين « الحاكم بأمر الله » لم تكن سخيفة كما صوّرها لنا الرواة الذين دأبوا أن يقدموا لنا شخصية هذا الخليفة بغير حقيقتها . . . إنما كان « الحاكم » اسطورة التاريخ الذي لم يستطع أحد أن يفهم مقاصده . أو ينفذ إلى واقعه » .

ومهما يكن من أمر فإن « الحاكم بأمر الله » ، وبإجماع اراء المؤرخين . كان عظيماً من العظماء . ويكفي أن تكون الدولة الفاطمية قد نعمت بعهده بالرخاء . والثروة الطائلة — والازدهار الاقتصادي بما يغيض عمّا وصفه المؤرخون ، وذلك لأن « الحاكم » قلّل من المصروفات واقتصد في النفقات بما ألغاه من المراسيم . وبما منعه من البذخ .

إنه في الواقع الخليفة المؤمن الذي أحب البساطة في العيش ، والذي كان يقصده ذوو الحاجات أثناء طوافه سواء بالليل ، أو النهار لرفع الظلامات . وقضاء الحاجات والطلبات التي كان يقضيها بنفسه ، مضافاً إلى نثره العطايا على المحتاجين .

وكان زاهداً متقشفاً في مظاهره العامة ، دؤوباً على الصلاة . والعزلة ، والانقطاع . وفي حياته الخاصة ثبت أنه احتقر المظاهر . والرسوم . والألقاب ، التي تقتضيها الخلافة ، ومنصبها الرفيع .

وفي وقت خروجه من القصر كان يكتفي بالركوب على فرس بسرج ولجام عادي محلّى بالفضة ، وبنود ساذجة ، ومظلة بيضاء بلا ذهب ، وعمامة دون جوهر . . . فقد ذكر عنه أنه ترك ركوب العماريّات ، والخيل ، والبغال المسوّمة مدفوعاً بالبساطة . وتارةً كان يركب على فرس بلا زينة ، أو حمار ، وكان من طبعه الاتصال بالشعب ، والاختلاط به ، وسماع شكاوى الرعية ، لذلك ترك أبواب القصر مفتوحة لكل قاصد من ذوي الحاجات والمتظلمين .

وعلى العموم فإن حياته الخاصة لم تكن تختلف عن حياته العامة ، وعن مظاهره الرسمية . . . إنها الحياة الصوفية الفلسفيّة ذات الأبعاد الروحية البعيدة التي تحتقر متاع هذه الدنيا وتترفع عن المفاسد التي تسود المجتمع ، وعن غرائزه ، وشهواته النفسيّة الوضيعة . . . إنها حياة الفلاسفة ، والقديسين الذين ينقطعون في الأديرة ، والصوامع ، للعبادة ، والتأمل ، والعزلة عن الناس ، والتفرّغ للمناجاة ، والتأمل .

وذكر التاريخ :

إنه في آخر عهده جنح إلى النسك المطلق ، والزهد ، والورع ، وأضرب عن جميع الملاذ الحسيّة ، والنفسيّة ،

واقتصر في طعامه على أبسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع فكان بذلك أميل إلى النقاء في حياته الخاصة . وإلى الزهد في ذلك الترف الناعم الذي يفت في الأجسام ، والأرواح القويّة . فلبس الثياب الخشنة ، وأطلق شعره . ولبس النعل الخفيف ؛ وبدا وكأنه راهباً يعيش في دير ، أو ناسكاً نذر نفسه لعبادة الله . والابتعاد عن عالم الكون والفساد .

والحقيقة :

فإن الحاكم بأمر الله خليفة غمرت شهرته الآفاق ، فكان في حياته . وبعد موته حديث الناس . تثار الأحاديث عنه في المجتمعات كالأساطير التي يضرب عليها الخيال نطاقاً واسعاً ... فالحاكم لم يكن شخصية عادية يغمرها العدم ، ويسهل الوصول إلى أعماقها . . . كان لغز العصر . وأسطورة الزمان . والرجل الذي لم يدرس . أو يعرّف كما يجب أن يدرس ، ويعرّف .

وضعه البعض فوق مرتبة البشر . فأساءوا إليه ، وقالوا إنه متصل بعالم الغيب ، وأن روح الله حلّت به . فنفى عن نفسه بأن تكون له هذه الصفات ، وأكّد لهؤلاء الغلاة بأنه لم يكن إلاّ رجلاً مؤمناً بالله . منقطعاً للعبادة ، زاهداً بالحياة كما كان جده علي بن أبي طالب . وقد ذكر ذلك أحد المؤرخين بقوله :

« إن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه ، ولم يوفّر شيئاً منها لنفسه ، ولم يبخل على أحد بجزيل عطائه ، ولم يشاركهم في شيء من أحوال هذه الدنيا . . . ثم أنه أحيا سنن الإسلام ، والإيمان ، وبنى الجوامع ، وشيّدها ، وعمّر المساجد وزخرفها . وأقام الحج ، والجهاد ، وعمّر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الإسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفقها في سبيل الله ومرضاته » .



ما قبل عهد الحاكم بامر الله

مرّ معنا أن العزيز بالله ، تسلّم الخلافة من المعز لدين الله وأنه لبث على أريكتها إحدى وعشرين عاماً . وكنّا ذكرنا في أكثر من مكان في هذه الموسوعة أن الدولة الفاطمية كانت تعتمد منذ نشأتها حتى عهد المعز لدين الله على تأييد القبائل المغربية ذات البأس . والعصبية . وتصطفي زعماءها للمناصب الكبرى في الدولة . ولكن هذا الأمر قد طرأ عليه تعديل في عهد العزيز بالله الذي رسم لنفسه ولدولته سياسة جديدة . وخطة حكيمة تقضي بالحد من نفوذ المغاربة وكان قد بلغ درجة كبرى من السيطرة . والتسلط . ثم إيجاد ما يشبه التوازن في الجيش . وفي المناصب الكبرى في الدولة . فاختار المشارقة . وقرّبهم . ومحضهم ثقته . كما ولّى بعضهم مراكز عليا في الإدارة والجيش . وكل هذا في سبيل إيجاد توازن في القوى

كما قلنا ، فولّى في أواخر أيامه « منجوتكين » التركي القيادة العامة في الشام ، وولّى « وفاء الصقلبي » ولاية عكا ، و « بشارة الإخشيدي » طبرية ، « وربا » غزة . . . وولّى « برجوان » إمـــارة القصر ، وكل هــذا أوجد جواً من الحسد ، والسخط لدى المغاربة ، وجعلهم يحشدون قواهم ، ويتكتلون للوقوف في وجه التيّار الجارف الذي طلع عليهم فجأة ، ومن جهة أخرى فإن الخليفة العزيز مال إلى اصطناع النصارى ، واليهود ، وتقريبهم ، وقد مرّ معنا الأدوار التي قام بها في عهـــده كل من « يعقوب بن كلس » و « عيسى بن نسطورس » وطبيبه الخاص « منصور بن مقشّر ».

ويجب أن لا ننسى أنه في عهد العزيز بالله بلغ نفوذ النصارى الذروة ، فاستولى الكتاب والرؤساء منهم على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات ، والنفوذ ، وقد كان لهذا العمل أثر سيء في المجتمع المصري خاصة ، ولدى المغاربة وقد أدرك العزيز بالله في خاتمة المطاف ، ما تتناقله ألسن الناس عنه ، وأدرك أن كل هذا يعرض به وبسمعته ، فخفف الكثير من الإجراءات ، وسرح بعضهم من وظائف الدولة ، وذكر التاريخ أنه قبض على « عيسى بن نسطورس » وبعض أعوانه ، ثم أفرج عنهم بعد أن أخذ منهم الضمانات التي تكفل الحد من إسرافهم في سياسة التمييز والاصطفاء .

وعني الخليفة العزيز بالله بشؤون الشام ، وكنا ذكرنا أنه اختار لولايتها غلامه « منجوتكين » التركي ، وقدمه على الجيش ليحاول فتح حلب ، إجابة لطلب بعض زعمائها الناقمين على الحمدانيين ، فسار « منجوتكين » إلى حلب ، بعد أن نظّم شؤون دمشق ، وأعاد إليها الهدوء ، والاستقرار وكان أمير حلب يومئذ « أبو الفضائل بن حمدان » حفيد سيف الدولة ، وعندما رأى بنو حمدان توغل الفاطميين وطموحهم ، هرعوا إلى الروم . وعقدوا محالفة مع « باسيل الثاني » أمبراطور القسطنطينية تقضي بإعلان خضوعهم له ، وقبولهم أداء الجزية .

فلمّا زحف الجيش الفاطمي من دمشق ، استغاث « أبو الفضائل » ووزيره « لؤلؤ » بالأمبراطور باسيل الذي كان منشغلاً بمحاربة البلغاريين ، فأرسل إلى قائده « نيقفورس » البرجمي أمراً بلزوم محاربة الفاطميين . وردهم عن حلب ، فزحف قائد الروم من أنطاكية . والتقى بالفاطميين على ضفاف نهر العاصي . ونشبت معركة كبرى بين الجيشين انتهت بهزيمة الروم هزيمة منكرة وفيها أسر قائدهم ، وقد ذكر أن الفاطميين طاردوا فلولهم حتى أنطاكية بعد أن قتلوا منهم عدداً لا يحصى . وعاد « منجوتكين » بعد ذلك إلى

حلب ، ولكنه لم يهاجمها نزولاً على نصيحة بعض قواده ، وارتدّ إلى دمشق بحجة نفاذ الأقوات . فاستاء العزيز بالله لذلك ، وبعث الأقوات في البحر إلى قائده ، وأمره بفتح حلب مهما كانت النتائج ، فسار «منجوتكين» بعد العام إلى حلب أي سنة ٣٨٢هـ. وضرب حولها الحصار ، فارتاع بنو حمدان لذلك ، وأرسل الوزير «لؤلؤ» إلى الأمبراطور يستصرخه ، ويصور له سوء العاقبة إذا سقطت حلب ، وهنا خشي الأمبراطور من تقدم الفاطميين نحو أراضيه ، وسار بنفسه على رأس جيش قدّر عدد أفراده بمائة ألف نحو حلب وانضم إليه «أبو الفضائل» الحمداني» و «لؤلؤ» ثم أن «باسيل» نزل أولاً على حصن «شيزر» وهو على مقربة من مدينة «حماه» فانتزعه من يد حاكمه الفاطمي ، ثم زحف إلى «حمص» فافتتحها وعاث فيها . وقتل من أهلها عدداً كبيراً ، ومن «حمص» سار إلى «طرابلس» وحاصرها أربعين يوماً ، ولكنه لم يظفر بفتحها . وكان الفاطميون في كافة المعارك يلزمون خطة الدفاع في قتالهم ، وعاد «باسيل» أخيراً إلى «القسطنطينية» بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام .

هذه الانتصارات السريعة أزعجت الخليفة العزيز بالله ،

فعوّل على السير إلى الشام بنفسه لمجابهة الروم ، فخرج من القاهرة « المعزّية » إلى « بلبيس » شرقي الدلتا في جيشه . وأمر بتجهيز الأسطول الكبير الموجود في « المقس » وهو المعروف بأسطول المعز لدين الله ، وكان يتألف من ستمائة مركب ، ولكن في ظروف غامضة احترقت بعض مراكبه ومعها عدة الأسطول وسلاحه . فاتّهم به جماعة من تجار الروم ولكن العزيز بالله استقدم أسطولاً آخر . وأعلن النفير العام في أنحاء دولته حتى اجتمع معه من الجنود ما لم يجتمع من قبل . ولكن المرض اشتد عليه فجأةً . فتخلّف في « بلبيس » أياماً إلى أن أدركه الموت سنة ٣٨٦ هـ .

هذه لمحة خاطفة كان لا بد من بسطها لبيان حالة الدولة الفاطمية في بدء ولاية الحاكم بأمر الله . أي بعد وفاة العزيز بالله . وفي ذلك الوقت كان « برجوان » هو القائم بشؤون قصر الخلافة . وكانت قد حدثت مصادمات عنيفة بين الروم والفاطميين الذين أحرزوا انتصارات مبدئية . ففي سنة٣٨٨ هـ. أفسد الجيش الفاطمي محاولة لاحتلال مدينة « صور » من قبل الأمبراطور « باسيل الثاني » . وفي نفس العام توغل الجيش الفاطمي في أرض الروم في منطقة الثغور . وقابل جيشاً بقيادة « الدوقس » فتمكنوا من قتل ستة آلاف منهم في آخر معركة . بالإضافة إلى « الدوقس » المذكور . وأسر أبناؤه .

الخليفة الجديد أمام الأحداث

كانت مصر أسطع جوهرة في تاج الدولة الفاطمية ، بل أعظم بلد في تلك الأمبراطورية الشاسعة الممتدة الأطراف . والحقيقة : فإن قيام هذه الدولة الفتيّة في هذه البقعة من الأرض ، في ذلك العصر يعتبر بداية عصر ذهبي جديد قام على دعائم من القوة والعزة والمكانة ، فمصر بعد عهدها الفاطمي الجديد ، أصبحت بخصبها ، ونعمائها ، وفيض مواردها أعظم دعامة لدولة الفواطم . بل أعظم قاعدة لهذا الصرح الباذخ المنيف ، الذي وصف بأنه أسطع عصور مصر الإسلامية ، هذا إذا لم يكن أسطعها جميعاً ، غير أن هذا العصر الذهبي كثيراً ما كان يبعث إلى التأمل ، والتفكير . . . فبينا نراه وضّاء واضحاً زاهراً في بعض النواحي ، إذ نراه مظلماً قاتماً في الجوانب الأخرى ، فالخلافة الفاطمية كانت تبدو غامضة ، ومستترة في كثير من مواقعها ، وأعمالها ،

مما صعب على المؤرخين استجلاء ذلك الغموض ، وقد يكون سبب كل ذلك مواقف الخلفاء الفاطميين ، وعبقريتهم ، وإجراءاتهم الجديدة والغريبة على المجتمع ، والتي سبقوا فيها عصرهم ، فكانت بالفعل مدعاة للتساؤل ، وللتأمل ، بل سبباً للقيل ، والقال ، والاستنتاج ، واختراع الحكايات ، والأساطير .

أجل . . . إن أغمض عهد شهدته مصر الفاطمية في حياتها ، وأكثرها إثارة وتفكيراً عصر « الحاكم بأمر الله » الخليفة الفاطمي السادس الذي ما زال العالم حتى في عصرنا الحاضر يوليه الجوانب الكثيرة من الاهتمام والعناية والتفكير .

ولي الحاكم بأمر الله الخلافة ، وعمره إحدى عشر عاماً ، وخمسة أشهر ، وستة أيام ، وكان مولده بالقصر الفاطمي الكبير في القاهرة « المعزية » . وأمه « أم ولد » وقد كانت حسبما تقول الروايات الكنسية القديمة ، والمعاصرة ، نصرانية من طائفة « الملكية » القبطية ، وكان لها نفوذ بارز أيام العزيز بالله ، وعطف خاص على النصارى مما مكنهم فيما بعد من الاستيلاء على مناصب النفوذ ، والثقة ، وكان لهذه السيدة شقيقان هما : « أرسانيوس » و « أريسطيس »

وكان الأخير بطريركاً في بيت المقدس سنة ٣٧٥ هـ. كما كان الأول مطراناً للقاهرة ، ثم عين فيما بعد بطريركاً في الاسكندرية سنة ٣٩٠ هـ .

ولد العزيز بالله من زوجته « أم ولد » ولداً سمّي لولاية العهد باعتباره الابن الأكبر ، وكان اسمه « محمد » ولكنه توفي في حياة أبيه ، وولد له أيضاً « ست الملك » عدا الحاكم بأمر الله ، وهذه الأميرة العظيمة كانت حازمة ، عاقلة ، قوية العزم ، بصيرة بالأمور ، وكان والدها العزيز بالله يحبها ، ويؤثرها ، ويستمع إليها ويعمل بنصائحها في كثير من الأمور ، وكان لها أيضاً أثراً بارزاً في توجيه سياسة الخليفة نحو أخوالها النصارى فكلما هبّت عواصف السخط ، والاضطهاد عليهم تدخلت لتلطيف الأجواء ، وإزالة الظلم ، وإيجاد أجواء التسامح .

وهنا تعرض نقطة غامضة في تاريخ « ست الملك » ، وقد تحدث عنها أكثر من مؤرخ . فذكروا بأن هذه الأميرة من أم نصرانية ، بينما الحاكم بأمر الله من أم غيرها ، وذكروا أسطورة ثانية فيها الكثير من المغالطات ، والجهل في التاريخ وهي أن « ست الملك » ولدت في المغرب سنة ٣٥٩ هـ ، وإن والدها العزيز بالله جاء بها إلى الديار المصرية ، عندما

رافق والده المعز لدين الله برحلته من المغرب إلى مصر ، وكأني بهؤلاء المؤرخين لا يفكرون عندما يتركون المجال لأقلامهم بالكتابة. وليتهم رجعوا إلى تاريخ ولادة العزيز بالله في المغرب سنة ٣٤٤ هـ ثم حسبوا السنين التي قضاها هذا الخليفة في المغرب ؟ وإني في الحقيقة لا أدري متى تزوج . وأنجب « ست الملك » بينما هو في سن الرابعة عشر . ومن جهة أخرى فمن أين جاء بهذه الفتاة النصرانية القبطية إلى المغرب ؟ وكلنا يعرف أن طائفة الأقباط لم يكن لهم أي نشاط في المغرب .

إننا نرفض هذه المزاعم التافهة السخيفة التي لا تقوم على أي دليل . ونعود لنؤكد : بأن الحاكم بأمر الله هو شقيق « ست الملك » من أم نصرانية مصرية . ولا أرى في ذلك أي خرق للمبادىء ، أو خروج عن دائرة الآداب .

ذكر التاريخ :

إن الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله منح ولده الحاكم بأمر الله ولاية العهد منذ أن كان صغيراً — أي بعد وفاة شقيقه الأكبر « محمد » . وأوصى قبل موته بولي عهده ثلاثة من أكابر رجال الدولة هم : « برجوان الصقلبي » خادمه وكبير خزّانه . و « الحسن بن عمّار » أمير قبيلة « كتامة » المغربية ،

و « محمد بن النعمان » قاضي القضاة ، وقد عهد بالوصاية الفعليّة إلى الأول ، والثاني ، وكان « برجوان » ويلقب أيضاً « أبا الفتوح » خصيّاً أبيضاً صقلبياً من أواسط أوروبا ، وهؤلاء كانوا يتخذونهم « أرقاء » ويعهدون إليهم الخدمة في قصور الملوك ، والأمراء ، و« برجوان » هذا تربّى في القصر الفاطمي ،واصطفاه العزيز بالله، ثم ولاّه إمارة القصر في أخريات أيامه،وخلع عليه لقب « الأستاذ » وعهد إليه بمهمات كبرى ، كما أولاه ثقته ، ومحبته .

أمّا « ابن عمّار » فكان رجلاً قوي الشكيمة ، وافر العصبة ، معتزاً بنفسه ، وبإمارته على « كتامة » ، ولكن « برجوان » بحكم ظروفه ، وطبيعة منصبه في القصر كان أوثق اتصالاً بالخليفة الصبي ، واشد تأثيراً فيه ، ومقدرة على توجيهه ، فلم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين ، واشتدت المنافسة بينهما ، وكان « ابن عمّار » وقتئذٍ يقوم بالإشراف على شؤون الدولة . وكان قد لقب « بأمين الدولة » وهو أول لقب من نوعه في الدولة الفاطمية فكانت مهمته تنحصر بإعادة نفوذ المغاربة المسلوب في عهد الخليفة العزيز بالله إلى سابق عهده ، وخاصة نفوذ قبيلة « كتامة » . ويحدث التاريخ :

إن « الحسن بن عمّار » ظهر بمظهر الطاغية المتجبر المطلق، فكان يدخل القصر ، ويغادره راكباً ، وألزم جميع الناس بالترجل له ، وتقبيل ركابه ، وأغلق بابه إلاّ على الخاصة والأكابر من شيعته ، كما أغدق الأموال ، والأعطية على « كتامة » خاصة وولّى أحداثهم وظائف الدولة ، وقسّم بينهم سلطانها ، فعاثوا في شؤونها ، ومرافقها ، وكثر اعتداؤهم على الناس ، وعلى أموالهم ، كل هذا و « ابن عمّار » يساعدهم ، ويمدهم ، ويغض الطرف عن أعمالهم ، وعبثهم .

وهنا أدرك ، « برجوان » ما يتهدده هو ، وجماعته « المشارقة » من الأخطار ، فكتب إلى القائد « منجوتكين » ، واستدعاه مع قواته من الشام للوقوف بوجه المؤامرة ، وأدرك «ابن عمّار » من جانبه ما يحيكه له « برجوان » فأذاع على الناس بأن « منجوتكين » قد خرج على الخليفة الحاكم بأمر الله وقام بثورة انفصالية ضد الدولة الفاطمية ، وأنه لا بد من تأديبه ، وبالفعل جهّز جيشاً كثيفاً وزحف قاصداً الشام ، فالتقى « بمنجوتكين » وقواته في « عسقلان » وبعد معارك طاحنة بين الفريقين انهزم « منجوتكين » وتمزقت قواته ، ولكن «ابن عمّار » عفا عنه فيما بعد ، وأعاد إليه اعتباره .

بعد هذا الحدث الرهيب اشتد ساعد « كتامة » وبالغ

فعزل أصدقاء « برجوان » عن مناصبهم ومنهم « جيش
الصمصامة » والي « طرابلس » في تلك الفترة . وعرا
الناس في تلك الأيام أن كفة « كتامة » قد رجحت . و
نفوذ « برجوان » والمشارقة يتضاءل يوماً بعد يوم ، ولك
الداهية « برجوان » كان ساهراً يرقب « ابن عمّار » ويتلمس
الفرص لأخذ الثأر . وإسقاط مخططاته ، فأخذ يدس الدسائس
ويؤلب عليه زعماء الجند الناقمين ، وخاصة المصريين وهك
لم يمض عام حتى تفاقمت الصعاب من حول « ابن عمّار
وشعر بحرج موقفه ، فأخذ يعد العدة للدفاع عن نفسه ، ك
وأن كل فريق أخذ يتحين الفرص للإيقاع بخصمه ، وانضو
الزعماء الناقمون مثل « منجوتكين » و « ابن الصمصامة
تحت لواء « برجوان » . وأخيراً وقع الانفجار . فقد ذ
التاريخ .

إن جماعة كبيرة من الجند ، والأهلين ، قد وثب
بتحريض من « برجوان » وهاجمت « الكتاميين » في ظا
القاهرة سنة ٣٨٧ هـ وأثخنت فيهم . فاضطرّ « ابن عمّار
إلى التخفي حيناً بعد فشله الذريع في إنقاذ جماعته . وهك
ترك الميدان لمنافسه . فقبض « برجوان » على زمام الأمور

ولكنه خاف من العواقب . وحسب حساباً لعودة المغاربة .
فردّ «لابن عمّار» اعتباره . وولاّه منصبه . ومنحه
امتيازاته مصانعة «لكتامة» وضماناً لسكوتها . ولكنه ظلّ مستأثراً
بكافة السلطات داخل البلاط . وخارجه . كما أنه في تلك
الفترة اختار لمعاونته كاتباً نصرانياً يدعى «فهد بن إبراهيم»
ففوّض إليه أمر التوقيع . والمراجعة . ولزم «برجوان»
الخليفة الحاكم بأمر الله ، يقيم معه بالقصر . ويسهر على
توجيهه ، ويستأثر لـديه بكل سلطة ونفوذ . واستبـد بكل
أمر في الدولة . ويبدو أن الأمور استقرت في تلك الفترة .

أجل . . . استمر «برجوان» يتبوأ ذروة القوة . والنفوذ
زهاء عامين ونصف . وفي عهده وقعت عدة ثورات . وقلاقل
في الشام . والمغرب . وحاول بعض الحكام والزعماء المحليين
الخروج على حكومة القاهرة . فسيّر «برجوان» جيشاً إلى
الشام بقيادة «جيش بن الصمصامة» فقاتل الثوار في عدة
مواقع . وأخضعهم تباعاً . واستعاد دمشق . واشتبك مع
الروم «البيزنطيين» في عدة معارك في شمالي الشام . وكانوا
قد انتهزوا فرصة الاضطراب للإغارة على الثغور . وتأييد
الخوارج . فهزمهم . وردهم إلى الشمال . . . (سنفصل
ذلك فيما بعد) وسيّر برجوان جيشاً آخر إلى «برقة» حيث

اضطرمت ثورة عارمة ، فرد النظام إليها ، وولّى عليها « يانس الصقلبي » ، وعيّن إلى جانبه طائفة من المشارقة لحكم الولايات ، والثغور مثل « ميسور الخادم » لطرابلس ، و« يمن الخادم » « لغزة » ، و « عسقلان » كما عيّن عدداً منهم بالقصر ، وجنح الروم بعد هزيمتهم إلى السلم ، وعقدت في هذه الفترة معاهدة بين البلاط الفاطمي ، والأمبراطور « باسيل الثاني » لعب فيها البطريرك « إرسانيوس » الدور البارز ، وهو خال الخليفة الحاكم بأمر الله كما مرّ معنا .

أمَّا الحاكم بأمر الله هذا الفتى الطري العود الذي بدأ يتفتح ، ويعي ما يجري من حوله ، فإن موقفه من هذه الأحداث التي كانت تجري في دولته من الطامعين ، والجشعين والمتآمرين يخرج عن كونه موقف فيه التريث ، والانتظار ، ومراقبة الأمور عن كثب ، وبحذر شديد . . . لقد كان « برجوان » يحجبه عن الاتصال برجال الدولة ، ويدفع به ما استطاع إلى مجالي اللهو ، واللعب ، وكانت أم الحاكم ، وشقيقته « ست الملك » ترعيان الخليفة الفتى وهو ينمو ، ويترعرع في ظل هذه الوصاية الخطرة ، ولكنهن كانتا عاجزتان عن التدخل لحمايته أو توجيهه ، لأن « برجوان » لم يفسح لهن أي مجال للتدخل في شؤون الدولة ، غير أن الشاب النابه كان

يشعر بخطورة الحالة . ولم يلبث أن فطن إلى موقف « برجوان » واستئثاره بالسلطة . واستبداده بكل شيء . وفي هذه الفترة كان يتخطّى سن الخامسة عشر . فأضحى شديد اليقظة . والحذر . والطموح من « برجوان » الذي كان يذهب في طغيانه . وتعسفه إلى حد بعيد . ويثير حوله ضراماً من البغضاء . والحقد . ويزيد بذلك خصومه داخل البلاط وخارجه إلى العمل على تقويض سلطانه . ومكانته . واعتقد أخيراً أن الجو قد خلا له . وأن الزمان قد صفا . فانكب على ملاهيه . وملاذه يقضي أوقاته في مجال الأنس . والطرب . والغناء . ولم يفطن إلى ما وقع في نفس الأمير الفتى . وما طرأ عليه من التبدل . والتطور فاستمر يعامله معاملة الطفل المحجور عليه . ويبالغ في حجبه بحجة حمايته . والحرص على راحته . وذهب في استهتاره إلى حد إهانته في بعض المواقف . وإهماله . والتنكر له . والاستخفاف به . وكأني به قد نسيَ أن « ست الملك » هذه الأميرة القوية القابعة في القصر تراقب الأحداث بيقظة . وانتباه . وأنها تأبى أن تجعل من شقيقها دمية يحركها «برجوان» كما كان « ابن الاخشيد » في عهد كافور . وهنا اتخذت قراراً يقضي بالقضاء عليه . فأوعزت إلى شقيقها الحاكم بأمر الله بأن يستدعي « الحسين بن جوهر الصقلي » قائد القوات

ويعيده إلى منصبه وكان «الحسين» كما ذكرنا قد عيّنه الخليفة العزيز بالله قائداً أعلى بعد وفاة أبيه «جوهر الصقلي» واصطفاه، وأولاه ثقته، وعطفه. فلمّا توفي العزيز بالله أبعد «الحسين» وقلّد ديوان البريد، والإنشاء.

وفي ذات مساء بعث الحاكم بأمر الله إلى «برجوان» بأن يركب معه، وانتظره في قصر اللؤلؤ، وهو منتزه للخلفاء الفاطميين شيده الخليفة العزيز بالله. وكان يقع على الخليج شرقي البستان الكافوري. وكانوا يصلون إليه من ممرّ تحت الأرض متصل بالقصور الأخرى دون أن يراهم أحد، وأخذ الحاكم معه «ريدان الصقلي» حامل المظلة، وهو من أعدى أعداء «برجوان» وعندما وصل «برجوان» إلى القصر تقدم منه ريدان فقبل يديه، وركبتيه. واعتذر إليه عن انشغاله عنه. وكان بالوقت ذاته يتحسس ثياب «برجوان» خوفاً من أن يكون لابساً درعاً من الفولاذ كما هي عادته. فلمّا تأكد أنه لا يلبس شيئاً رماه أرضاً وضربه بحديدة على قلبه ثم طعنه في عنقه في سكين. وفي تلك اللحظات انقضّت عليه جماعة كانت قد أعدّت خصيصاً للفتك به فأثخنوه طعناً بالخناجر واحتزوا رأسه، ودفنوه في المكان الذي قتل به وذلك سنة ٣٩٠ هـ. ويذكر التاريخ :

إن والدة الحاكم بأمر الله وشقيقته «ست الملك» خرجتا خوفاً على الحاكم ، ولكنه طمأنهما بنجاح الخطة . وأمرهما بالرجوع . ولمَّا عاد إلى القصر كان خبر مقتل «برجوان» قد ذاع في كل مكان . فاضطرب الناس ، وأشرف الحاكم بنفسه على الجموع وخاطبهم قائلاً :

«إن برجوان عبدي استخدمته فنصح . فأحسنت إليه . ثم أساء فقتلته» . وتوجه إلى المغاربة وقال :

«أنتم شيوخ دولتي . وأنتم الآن عندي أفضل مما كنتم فيه مما تقدم» ثم التفت إلى المشارقة وقال :

«أنتم تربية العزيز بالله . ومقام الأولاد ، وما لاحد منكم عندي إلاّ ما يؤثره ، ويحبه . فكونوا على رسومكم . وامضوا إلى منازلكم» فدعوا جميعاً ، وقبلوا الأرض :

وبعد ذلك صاح «ريدان» بالناس :

«من كان في الطاعة فلينصرف إلى منزله . ويبكر إلى عمله»

وفي نفس اليوم اتخذ الحاكم بأمر الله سلسلة من التدابير لتوطيد الأمور . فاستدعى «فهد بن إبراهيم» وهدأ من روعه . وأقرّه في منصبه ، كما صودرت أموال «برجوان» وكانت عظيمة طائلة . واختفى أصدقاؤه من المجال .

وأخيراً ، وبعد أربعة أعوام من ولايته ، استطاع الحاكم بأمر الله أن يطوي مرحلة الحداثة . وأن يجلس على أريكة السلطة العليا ، وأن يبدأ عهده الحقيقي ، فالحاكم في هذا السن أي الخامسة عشرة ، بدأ مضطرم النفس . والأهواء ، وافر الذكاء ، والجرأة ، والعزم ، فبدأ بتعيين مدير دولة . أو رئيس وزراء مكان « برجوان » وقد وقع اختياره على « الحسين بن جوهر الصقلي » قائد القواد كما ذكرنا . فاستدعاه ، وخلع عليه ، وقلّده النظر في أمور الدولة ، فأصدر أمره بأن لا تبلغ إليه المهام ، والظلامات إلاّ في مكتبه بالقصر ، وألاّ يقصد أحد داره ، وألاّ يخاطب بغير لقبه الرسمي دون تعظيم ، أو تفخيم ، وإلاّ يمنع أحد من مقابلة الخليفة ، أو الاتصال به ، وهكذا غدا « الحسين بن جوهر » وصهره « عبد العزيز بن محمد بن النعمان » الذي خلف أباه في منصب قاضي القضاة أعظم رجلين في الدولة .

في هذه المرحلة بدأ الحاكم بإدارة شؤون الدولة العليا بيديه . فنظّم مجلساً ليلياً كان يحضره أكابر الخاصة ، ورجال الدولة ، وكانت الغاية منه البحث في الشؤون العامة للدولة ، وكانت هذه أول ظاهرة لهيام الحاكم بأمر الله بالليل ، والتجوال في ملكته ، وفي تلك الفترة توفي « جيش بن الصمصامة » والي

الشام، فعين مكانه «فحل بن تميم» ولمّا توفي بعد حين عيّن «علي ابن جعفر بن فلاح» نجل القائد الذي فتح الشام بعهد المعز لدين الله . وفي تلك الفترة أيضاً اتجه الحاكم بأمر الله نحو إقصاء الأتراك . والصقالبة . وتمكين المغاربة كما كانوا في عهد المعز لدين الله .

وكان لا مناص للحاكم بعد ذلك من أن يخطو خطوة أخرى ليخلص له حكم مصر . فأبعد أعوان «برجوان» من رجال الجيش . والقصر . كما اتخذ تدابير أخرى من جهة ثانية للقضاء على «ابن عمّار» زعيم «كتامة» وهكذا فقد كمن له جماعة من الأتراك وقتلوه سنة ٣٩٠ هـ وعلى الأثر استأصل أعوانه، وكل هذا أشاع الرعب لدى «الكتاميين» فأتوا إلى القصر كاشفين رؤوسهم . طالبين العفو . والأمان . فقبل منهم الحاكم الالتماس . وكتب لهم عهداً بذلك . وكان الحاكم بعد مقتل «برجوان» قد ولّى «ابن عمار» الوظائف الرئيسية في الدواوين . والولايات للمغاربة . فعزل المصريين . وقتل بعضهم . وتوقف عن صرف الرواتب للمشارقة . وأساء معاملتهم . فهرب الكثير منهم إلى الشام .

الاحداث والحروب
في عهد الحاكم بامر الله

كما كان عصر الحاكم بأمر الله مليئاً بالأحداث الداخلية العنيفة ، والغريبة ، كذلك كان مليئاً بالأحداث الخارجية ، والحروب . وقد تكلمنا في الفصل السابق عن بعضها بإيجاز ، وها نحن نبسطها الآن كما وردت في المصادر التاريخية .

ترك الخليفة الفاطمي الخامس لولده الحاكم بأمر الله دولة كبرى واسعة مترامية الأطراف تشمل المغرب ، ومصر ، والشام ، وغيرها من الأمصار ، ولكنها على العموم كانت وما زالت بحاجة إلى مزيد من السهر ، والاهتمام ، وبذل الجهود لتوطيد الأمن ، والاستقرار . ففي الشام « القرامطة » و « الحمدانيين » والقبائل العربية الأخرى من جهة ، ومن جهة أخرى الـدولة « البيزنطية » أو « رومـا » الشرقية التي كانت في ذلك الوقت في مركز القوة ، والعظمة وخاصة

في عهد الأمبراطور « باسيل الثاني » معاصر الخليفة العزيز بالله. وولده الحاكم بأمر الله ، فهذه الدولة « البيزنطية » قد انتهزت فرصة الاضطرابات التي أثارتها غزوات القرامطة المتكررة إلى الشام ، وفلسطين ، فاستولت على « أنطاكية » وبعض الثغور ، والمواقع الأخرى . كما شجعت حركات الانتفاض على حكومة القاهرة ، وتحالفت مع أعداء الفاطميين . وعلى الأخص « الحمدانيين » . واشتبكت كما ذكرنا مع جيوش الدولة الفاطمية في عدة معارك برية ، وبحرية .

وقد مرّ معنا . كيف تفاقمت حوادث الشام في أواخر عهد العزيز بالله ، وكيف كان يعتزم الحرب في الشام بنفسه . لولا أن عاجله الموت في « بلبيس » وهو على رأس جيشه . وهكذا فإن عهد الحاكم بأمر الله بدأ في فترة اضطراب . وكان من حسن حظ هذا الخليفة أنه كان تحت وصاية «برجوان» وهو يومئذ مدير الدولة ، وزعيمها ، والرجل القوي ، الوافر العزم ، والذكاء ، فنشط لقمع الفتنة . وتوطيد الأمن . وبدأ عهده بمقارعة المغاربة ولا سيما « الكتاميين » فعمل على سحق سلطانهم ، وقد رأينا كيف انتهى ذلك الصراع المرير .

وفي سنة ٣٨٨هـ. اضطرمت الثورة في « صور » بزعامة بحار مغامر يدعى « العلاّقة » فقبض على زمام الحكم فيها .

وضرب السكة باسمه ، ونقش عليها هذه العبارة : « عزاً بعد فاقة للأمير علاّقة » ، وثار « بالرملة » في نفس الوقت زعيمها « المفرج بن دغفل الجرّاح » فأرسل « برجوان » إلى فلسطين جيشاً كبيراً بقيادة « جيش بن الصمصامة » وكان « جيش » جنديّاً جريئاً باسلاً وهو من زعماء « كتامة » الذين انضموا إلى « برجوان » ضد « ابن عمّار » فسار إلى « الرملة » واستولى عليها ، وأخضع ثوارها ، وطارد « المفرج » وضيق عليه حتى أذعن أخيراً لطلب الأمان ، فعفا عنه ، وأمنه .
ثم عطف بقواته على « صور » وكان « العلاّقة » قد استنجد بالأمبراطور « باسيل الثاني » ووعده بتسليم « صور » إليه . فبعث إليه المدد في البحر ، ولكن وحدة من الأسطول الفاطمي سارت إلى « صور » بقيادة « الحسين بن ناصر الحمداني » و « فائق الخادم » فحاصروا صور من البر ، والبحر ، ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة انتهت بانتصار الفاطميين ، ويذكر التاريخ : أنهم أسروا سفينة « بيزنطية » كبرى ، فقتلوا كل من فيها ، وأخيراً سقطت « صور » في أيدي القوات الفاطمية ، ونهبت ، وسبي جميع من فيها ، وأسر « العلاّقة » وأرسل إلى القاهرة حيث أعدم سنة ٣٨٨ هـ .

وسار « جيش بن الصمصامة » بعد ذلك إلى دمشق ،

وكان عليها « سليمان بن جعفر الكتامي » الابن الثاني للقائد « جعفر بن فلاح » فاتح الشام بعهد الخليفة الرابع المعز لدين الله وكان قد عين من قبل « ابن عمّار » إثر انتصاره على « منجوتكين » واليها السابق . فنزعه « جيش » من الولاية وألجأه إلى الفرار . ثم أنه قمع الفتنة التي أثارها « سليمان » . ووطّد سلطة الدولة . وواصل سيره إلى « أفاميا » وهي بلدة على مقربة من مدينة « حماه » . وهناك التقى بالروم فنشبت معركة كبرى بين الفريقين هزم فيها الفاطميون أولاً . ولكن كوكبة من الفرسان بقيادة « بشارة الاخشيدي » صمدت في وجه الروم . وتمكن أحد الجنود الفاطميين « الفدائية » من النفاذ إلى المعسكر البيزنطي . والوثوب على قائد الجيش المعروف « بالدوقس » فقتله على حين غرة . وعلى أثر ذلك وقع الاضطراب في صفوف الروم . واعتدل الفاطميون في مواقفهم وكان أن مزقوهم شر ممزق ، وطاردوا فلولهم حتى أبواب أنطاكية . وفي تلك المعركة أسر أبناء « الدوقس » وكبار القواد وأرسلوا إلى مصر سنة ٣٨٩ هـ. حيث افتدتهم حكومتهم بعد ذلك .

بعد هذه الانتصارات الساحقة عاد « جيش » إلى دمشق . وعسكر في ظاهرها . ثم تتبع الخارجين . والمخالفين فقتلهم .

وقيد بعضهم ، وبسط حكم القانون على المدينة . بيد أنه لم يلبث أن اضطر إلى مواجهة خطر « البيزنطيين » مرة أخرى وذلك أن « باسيل الثاني » لمّا رأى ما حلّ بجيشه من الفشل ، والهزيمة قرر أن يسير إلى الشام بنفسه ، فعاث في الساحل ما بين « أنطاكية » و « بيروت » ، وهنا استصرخ « جيش » الدولة في القاهرة ، فأرسلت إليه المدد من كل صوب .

ويذكر التاريخ :

إن « باسيل » نزل على « طرابلس » وكان « جيش » قد أعدّ كل شيء للقائه ، ونشبت بينهما معارك عنيفة في البر ، والبحر ، وكانت بوادر التفوق الفاطمي قد بدأت تظهر في الميادين بعد الخسائر الكبيرة التي منيَ بها جيش « باسيل » البيزنطي ، وتشاء الظروف أن تصل إليه في تلك الساعات أنباء مزعجة عن تحركات « بلغارية » على حدود دولته ممّا اضطره إلى الارتداد ميمماً جهة الشمال. . . وفي تلك الفترة مرض « جيش » وتوفي سنة ٣٩٠ هـ . فخلفه في ولاية الشام « فحل بن تميم » وسادت السكينة الشام حيناً .

وكان « برجوان » قد رأى أن يهادن « الروم » لكي يتفرغ لمعالجة الأحداث الداخلية ، والقلاقل التي تفاقمت ، فأرسل إلى الأمبراطور « باسيل » يقترح عقد الصلح والمهادنة فاستجاب للدعوة ، وأنفذ سفيراً إلى بلاط القاهرة ، أمّا

« برجوان » فانتدب بطريرك « القدس » المعروف « أريسطيس وهوخال الخليفة الحاكم بأمر الله . للسفر مع السفير « البيزنطي » إلى « القسطنطينية » وتقرير شروط الهدنة مع القيصر. فسار البطريرك . وقام بالمهمة . وعقدت معاهدة الصلح بين مصر الفاطمية . والدولة « البيزنطية » لمدة عشرة سنوات . أما « أريسطيس » فأقام في عاصمة « بيزنطية » كسفير للفاطميين مدة أربعة أعوام حتى توفي فيها .

ومن الأحداث التي عصفت بالدولة الفاطمية في ذلك العهد . ما وقع في « طرابلس الغرب » فإن « برجوان » كان مضطراً إلى إرسال قوة كبيرة بقيادة « يانس الصقلي » لإعادة سلطة الخلافة الفاطمية . وكانت عندئذ تحت حكم « باديس ابن منصور الصنهاجي » وغير خاف على القارىء الكريم بأن الخليفة الرابع المعز لدين الله . حينما ترك المغرب قاصداً مصر سنة ٣٦١ هـ استخلف على المغرب « يوسف بن زيري الصنهاجي » أو « بلكين » كما كانوا يسمونه . فقام بمهمته على أكمل وجه. وقمع دابر الفتنة بحزم . ووطّد سلطان الحاكم . ولكنه في أيامه الأخيرة سأل العزيز بالله أن يضيف إليه ولاية « طرابلس الغرب » وكان المعز قد احتفظ بها . وضمّها إلى القاهرة . فأجابه العزيز إلى ملتمسه . واستخلفه

عليها . ولمّا توفي « بلكين » خلفه ولده « المنصور » فأقره العزيز بالله على ولايته . ثم خلف « المنصور » ولده « باديس » سنة ٣٨٦ هـ. فبعث إليه الحاكم بأمر الله بالعهد ، والخلع المعتادة ، فجدد البيعة للحاكم . ولكن يبدو أن « آل زيري » طمحت نفوسهم ، وأرادوا أن يستأثروا بالسلطة كاملة . وأن يجعلوا الفاطمية في المغرب إسماً لا وجود له . ولمّا كانت « طرابلس الغرب » تجاور مصر من الغرب فإنهم كانوا يخشون عليها من أطماع أولئك البرابرة الأشداء . فرأى « برجوان » أن يستّرد « طرابلس » وأن يحصنها . ويجعل منها درعاً يقي مصر شر العدوان والغزوات ، وهكذا تفاهم مع حاكمها المغربي ، وبعث إليها « يانس الصقلي » كما ذكرنا . فاسترّاب باديس من تلك الحركة وبعث الجند لمقاتلة « يانس » الذي لم يلبث أن هزم وقتل . وهنا سيّر الحاكم بأمر الله جيشاً ثانياً بقيادة « يحيى بن علي الأندلسي » فخاض مع البربر عدة معارك . ولكنه اضطرّ أخيراً إلى الانسحاب . وترك طرابلس . وبعد خطوب . وأحداث . ومناورات . استطاع باديس أن يستعيد طرابلس . وأن يبسط حكمه عليها . ونعود إلى الشام فنقول :

بعد أن قبض الحاكم بأمر الله على زمام الأمور . توفي « فحل بن تميم » والي الشام . فعين مكانه « علي بن جعفر

ابن فلاح » ثم عين بعده « تموصلة بن بكّار » سنة ٣٩٣ هـ . فتوفي بعد قليل . فخلفه « مفلح اللحياني » . وهدأت الشام بعد عقد المعاهدة الفاطمية البيزنطية . ولكنها سنة ٤٠٠هـ. عادت من جديد . ففي تلك السنة نقم الحاكم بأمر الله على «آل المغربي » وهم أسرة قوية من الأعيان . والوزراء . وكان لها شأن يذكر في الدولة الفاطمية . ففرّ عميدهم الوزير « أبو القاسم بن المغربي » إلى الشام . وكان كبيرهم « أبو الحسن ابن علي المغربي » قد خدم العزيز بالله وزيراً في الشام أيضاً . واشترك في محاربة « بني حمدان » أمراء حلب . ولمّا تولّى الحاكم بأمر الله الملك كان « أبو الحسن وولده أبو القاسم » من جلسائه وخاصته . ولكن ثبت أنهما اشتركا في مؤامرة ضد الحاكم بأمر الله . فحكم عليهما بالموت . وهكذا فرّ « أبو القاسم » ولجأ إلى « حسّان بن مفرج بن الجرّاح » زعيم عرب فلسطين . فأغراه بالخروج . والثورة . وكان «آل الجرّاح » من خصوم الدولة الفاطمية . فثار « حسّان » وزحف على « الرملة » واستولى عليها . وقتل واليها . وعاث جنده فيها . واتفق الخوارج على استدعاء « الحسن بن جعفر الحسني » أمير الحرمين . ونادوا به خليفة علوياً مكان الحاكم بأمر الله . وتسمّى بأمير المؤمنين « الراشد لدين الله » ونزع

ما كان بالكعبة من ذهب وفضة . وضربت النقود باسمه ، وحرّض «أبو القاسم ابن المغربي» سائر القبائل في الحجاز على خلع طاعة الفاطميين ، وسار في جمع كبير منهم إلى «الرملة» وبعث الحاكم بأمر الله الجند إلى فلسطين بقيادة «يارتكين العزيزي» فهزم ، وأسر ، ثم قتل . واستفحل أمر بني «الجراح» وبسطوا نفوذهم على جنوبي الشام كله ، وحاصروا حصون السواحل ، فرأى الحاكم أن يأخذهم باللين ، والمصانعة وبعث إليهم الأموال ، والتحف ، والهدايا ، فاستجابوا إلى الصلح ، وعادوا إلى الطاعة ، وعاد أيضاً «الحسن بن جعفر» إلى «مكة» خوفاً من سوء العاقبة ، واعتذر إلى الحاكم بأمر الله فقبل اعتذاره ، ثم أن الحاكم بأمر الله استمال «آل المغربي» وأصدر أماناً للوزير «أبي القاسم» ولكنه آثر المضي إلى «بغداد» . . . وهكذا عادت السكينة إلى الشام .

ومما يجب الإشارة إليه أن سقوط حلب في أيدي الفاطميين وزوال الإمارة «الحمدانية» يعتبر من أعظم الحوادث في عصر الحاكم بأمر الله . «فبنو حمدان» كما ذكر التاريخ استعانوا «بالبيزنطيين» للإبقاء على إمارتهم ، وسلطانهم ، واستمروا فترة يؤدون الجزية لامبراطور «القسطنطينية» وينضوون تحت لوائه مفضلين الروم على الفاطميين . ولم

تنجح حملات الفاطميين بعهد الخليفة العزيز بالله في فتح حلب . وأخيراً عاون الصلح الذي عقده « برجوان » مع « البيزنطيين » على استتباب السلام في شمالي الشام . والإبقاء على « بني حمدان » في إمارتهم .

وذكر التاريخ :

إن « أمير حلب » في أوائل عهد الحاكم بأمر الله كان « أبو الفضائل بن حمدان » الملقب « بسعد الدولة » . وقد استمر في حكمها بمعاونة وزيره القوي « لؤلؤ » ولمّا توفي سعد « الدولة » وثب « لؤلؤ » بولديه « أبي الحسن » و « أبي المعالي » فانتزع الولاية منهما لنفسه . وحكم باسمهما مدة من الزمن ، ثم أخرجهما من « حلب » فسارا إلى مصر . والتجآ إلى الحاكم . واستقل « لؤلؤ » بالحكم بعد ذلك ، ولكنه رأى أن يتقي خصومة الفاطميين . فأعلن الطاعة للحاكم ، ودعا له حيناً . ثم عاد فنقض الدعوة . وعاد إلى موقف الخصومة . والمقاومة . ولمّا قوي « صالح بن مرداس الكلاّبي » أخذ يتطلع إلى حلب . وفي سنة ٤٠٢ هـ.سار في قواته إلى « حلب » ، وحاول أن يدخلها فردته قوات « لؤلؤ » وأسرته. ولكنه لم يلبث أن فرّ من الأسر . وذهب فجمع قواته ، وحاصر حلب زهاء ثلاثين يوماً حتى ضاق أهلها ذرعاً .

وأخيراً خرج « لؤلؤ » لقتاله فهزم ، وأسر ، ولم يطلقه « صالح » إلاّ لقاء فدية كبيرة ، وأخيراً ارتدّ صالح عن « حلب » واستمر بها « لؤلؤ » . ولكن خلافاً نشب بين « لؤلؤ » وغلامه « فتح » قائد القلعة انتهى بأن كاتب « فتح » الحاكم بأمر الله . مظهراً طاعته ودعا له . وأعلن الثورة على سيده ، وعاونه « صالح بن علي » على استخلاص المدينة . ولمّا لم يجد « لؤلؤ » سبيلاً إلى استبقاءسلطانه ، غادر « حلب » إلى « انطاكية » ونزل فيها على حلفائه الروم . وتسلّم نواب الحاكم بأمر الله « حلب » واختار الحاكم لولايتها أميراً من أمراء بني حمدان يدعى « عزيز الدولة فاتك » ولقبه « أمير الأمراء » فدخلها سنة ٤٠٧ هـ واستمر في حكمها تحت طاعة الحاكم بأمر الله . وتحت لوائه حتى نهاية حكمه .

الثورة الكبرى

كان أعظم حدث في عصر الدولة الفاطمية في مصر . وأشدها خطراً قيام «أبو ركوة» وغزوه لمصر تلك الغزوة التي كادت تزعزع أسس الدولة الفاطمية . وتقضي على خلافة الحاكم بأمر الله . وأنه أعاد للأذهان ثورة الخارجي «أبو مخلّد بن كيداد» في المغرب الذي قام بها ضد القائم بأمر الله . والمنصور . أمّا «أبو ركوة» هذا فهو ينحدر من سلالة الأمويين الأندلسيين . ويذكر التاريخ :

إنّ سبب تسميته «أبو ركوة» يعود إلى أنه كان يحمل دائماً ركوة ماء لوضوئه على طريقة الصوفية . أمّا سبب مجيئه إلى الشرق فغير واضح . فحينما حجر «المنصور بن أبي عامر» المتغلب على حكومة «قرطبة» على الخليفة «هشام المؤيد بالله الأموي» وتتبع زعماء بني أمية . وفروعهم للتخلص منهم ، فرّ «الوليد — أبو ركوة» فيمن فرّ من أعضاء أسرته خوفاً

من المقتل . وكان عند مغادرته « لقرطبة » في نحو العشرين من عمره ، فاجتاز المغرب الأقصى ، وأقام « بالقيروان » حيناً يعلم الصبيان . ثم سار بعد ذلك إلى مصر . فدرس فيها الحديث . وبعد أن تجول حيناً في « الحجاز » و « اليمن » و « الشام » عاد إلى « مصر » ثم نزح إلى « برقة » واستقر في بطون « بني قرَّة » أقوى قبائلها العربية ، وهناك افتتح مكتباً لتعليم الصبيان ، وكان يتشح بثوب من الورع المؤثر ، ويجتذب إليه الناس بنسكه ، ووعظه ، وذلاقة لسانه ، ونبل أخلاقه . ويشك بعض المؤرخين في نسبة « أبو ركوة » للأمويين .

ولمّا قطع مرحلة التجوال ، والدرس ، والاتصال رأى الفرصة سانحة للدعوة والعمل ، فكشف عن شخصه ، وأظهر نسبته ، فدعا إلى عمه « هشام المؤيد » الأموي ، وزعم أنه سيملك مصر ، ويقيم الإمامة على أسس من العدل ، والتقوى ، وكانت بلاد المغرب وقبائله الساذجة دائماً مهداً خصباً لبث الدعوات الدينية . فاستجاب إليه « بنو قرّة » والتف حوله البدو في أنحاء « برقة » وكان « بنو قرّة » قد أصابهم من المطاردة والضغط بعصر الحاكم بأمر الله الشيء الكثير ، فقتل البعض منهم . وسجن البعض الآخر ، فلما دعاهم « أبو ركوة » استجابوا إليه . وهرعت بطون « برقة » من سائر النواحي .

واتفقوا معه على الجهاد في سبيل الله وأن يكون له ثلث الغنائم . و « لبني قرّة » وحلفائهم الثلثان . وشعر والي « برقة » « ينال الطويل » بخطورة هذه الحركة ، فهمّ بقمعها ، ولكن الحاكم بأمر الله أمره بالكف عنهم ، وإغفال شأنهم ، ولمّا شعر « أبو ركوة » بقوته . وازدياد عدد قواته . زحف بمجموعه إلى « برقة » فخرج الجند للقائه ، واقتتل الفريقان في « رمادة » فهزم جيش الحاكم بأمر الله هزيمة منكرة . واستولى الثائر على خيلهم . وسلاحهم . ودخل « برقة » ظافراً . وبسط حكمه عليها . وذلك في سنة ٣٩٥ هـ .

واستقرّ « أبو ركوة » في دار الإمارة . وأظهر الرفق . والعدل . وقطع خطبة الفاطميين . ولعن الحاكم بأمر الله ، وآباؤه على منابر المساجد . وتلقب بالثائر بالله . وممّا يجدر ذكره أن التاريخ ذكر بأنه كان فصيحاً . وخطيباً بليغاً . حلو الحديث . وأخيراً ضرب السكة باسمه ، وهرعت إليه الوفود لتأييده ، واشتد بأسه . وذعر الحاكم لتطور الحوادث على هذا الشكل فبادر إلى إرسال المدد إلى والي « برقة » « ينال » مرة أخرى ودعاه لمحاربة الثائر العنيف واسترداد « برقة » منه ، فخرج « أبو ركوة » للقائه . والتقى الفريقان في وادٍ مقفر على مقربة من « برقة » وكان الثوار قد طمسوا

آباره . فأجهد العطش جند الفاطميين . وفي تلك اللحظات ، تسلّل عدد من الضباط المصريين . والمغربيين الناقمين على الحاكم بأمر الله إلى معسكر الثائر . وانضموا إلى قواته المحاربة ، فازداد بهم قوة على قوة . ودارت أخيراً الدائرة على الفاطميين وللمرة الثانية ، فمزقوا شر ممزق . وأسر قائدهم « ينال » وقتل . وبعد ذلك عاد « أبو ركوة » إلى « برقة » وقد امتلأت يده من الغنائم . واستفحل أمره ، وازدادت هيبته . وسلطانه .

ويذكر التاريخ :

إنه بعد تلك الانتصارات السريعة الحاسمة ، أخذ « أبو ركوة » يتطلع إلى امتلاك مصر . وشجعه على ذلك بعض أكابر الزعماء الناقمين على الحاكم بأمر الله ، مثل « الحسين ابن جوهر » قائد القواد ، الذي فرّ من القاهرة ولجأ إلى طرابلس الغرب . وكان زعماء المغاربة قد نزعوا ثقتهم من الحاكم ، وأخذوا يتربصون به الفرص . فبعث « أبو ركوة » سراياه إلى الصعيد أولاً فعاثت في بعض أعماله ، ولم تلق كبير مقاومة ، ولمّا رأى طريق مصر مفتوحاً أمامه سار بجموعه الجرّارة نحو الصعيد ، واتفق مع شركائه على اقتسام تراث الدولة الفاطمية ، فتكون مصر من نصيبه ، ويختص العرب بالشام .

لقد كانت في الواقع مؤامرة خطيرة ، وثورة عارمة لها

خطورتها تهدد مصير مصر ، ومصير الدولة الفاطمية . فزحف « أبو ركوة » على مصر لم يكن أقل خطراً من زحف « القرامطة » ولكن من حسن الطالع أن القوتين في كل مرة كان ينقصهما النظام ، والوحدة . والتناسق في الرأي والعمل . مضافاً إلى ذلك أن جيش « أبو ركوة » كان مزيجاً من المتعصبين ، والبدو المغامرين ، والمرتزقة الذين لا هم لهم سوى السلب . والنهب . وانتظار الغنائم . والأسلاب . ومن جهة أخرى فإن الحاكم في هذه المرحلة شعر بفداحة الخطر . فاستقدم الجند من الشام وسيّر سنة ٣٩٦ هـ للقاء الغزاة جيشاً منظماً بقيادة « الفضل بن عبد الله » فالتقى بالغزاة في « كوم شريك » على مقربة من « الاسكندرية » ودارت بين الفريقين معارك عنيفة قتل فيها ما لا يحصى من الجانبين . ورأى « الفضل » من كثرة جموع الغزاة وشجاعتهم ما هاله . فلجأ إلى الخديعة . وتفاهم مع بعض زعماء « بني قرّة » من أنصار « أبي ركوة » سرّاً ليكونوا له عيناً ، وليتجنبوا القتال ما استطاعوا . واستمرت المعارك بين الفريقين مدى حين ، ورجحت كفة المهاجمين ، وارتد « الفضل » بجنده صوب القاهرة فذعر الناس . وسرى الخوف . وبلغ « أبو ركوة » صحراء « الهرم » وقد كان الحاكم أرسل جيشاً آخر بقيادة « علي بن جعفر بن فلاح » ولكنه لم يستطع

الثبات في المجال أمام القوات الزاحفة . فعاد جيش « الفضل » إلى الساحة من جديد ، وكان « أبا ركوة » قد ارتد صوب صحراء « الفيوم » فتبعه « الفضل » بقواته بعد أن نظمها ، وأعدها . وعززها بالمدد واستؤنف القتال بين الفريقين بمنتهى الشدة ، وكانت المعركة الفاصلة في نهاية سنة ٣٩٦هـ. فهزم « أبو ركوة » ومزقت جموعه ، وتناثرت قواته في البراري ، فتبعها « الفضل » يسد عليها منافذ الهرب . وفي تلك الفترة كان يبعث للقاهرة بمئات الرؤوس للقواد ، وللزعماء الذين خانوا مصر الفاطمية . والتجأوا إلى الثوار . وأخيراً ارتد « أبو ركوة » جنوباً . ولكن « الفضل » ظلّ يطارده حتى حدود بلاد « النوبة » وهناك قبض عليه ، وحمل إلى القاهرة . فسرّ الحاكم . وخلع على الفضل ، وغمره بعطفه ، وذاعت أنباء النصر في طول البلاد . وعرضها ولما جيء « بأبي ركوة » إلى الإمام الحاكم بأمر الله التمس الصفح ، وقدم عليه رقعة عليها هذه الأبيات :

فررتُ فلم يغنِ الفرار ومن يكن
مع الله لم يعجزه في الله هاربُ
ووالله ما كان الفرار لحــاجة
سوى فزع الموت الذي أنا شاربُ

وقاد قــادني جرمي إليك برمتي
كما هزّ ميت في رجا الموت سارب
وأجمع كل النـــاس أنّك قاتلي
فيا رب ظنّ ربه فيكَ كاذب
وما هو إلاّ الانتقـــام وينتهي
وأخذك منه واجب لك واجب

بيد أن الحاكم لم تأخذه بالثائر أية رأفة . فأمر بمعاقبته . والتنكيل به . فطيف به في شوارع القاهرة في هيئة زرية . ومن ورائه قرد مدرّب . ولما مرّ الموكب « بمنظرة الذهب » حيث كان الحاكم يرقبه . استغاث « أبو ركوة » بالحاكم مرة أخرى فلم يصغ إلى تضرعه . ولم يصل إلى ظاهر القاهرة إلاّ جثة هامدة ، وقيل أنه مات بالسكتة القلبية وأخيراً قطع رأسه . وصلب في الميدان الكبير .

وهكذا انهارت تلك الثورة العنيفة التي اعتبرت أعظم ما تعرض له الحاكم بأمر الله . ولكن يعود الانتصار في المعركة لثبات الحاكم . وحزمه . ورجولته . وقوة أعصابه . فهذه الثورة ليس لها شبيه إلاّ ثورة « مخلّد بن كيداد » الخارجي الذي ثار على الخليفتين القائم بأمر الله والمنصور في المغرب كما ذكرنا .

تعليقات وآراء

مما لا شك فيه أن الشام منذ أول يوم حطّ الفاطميون فيه الرحال ، بدأت تقدم الصعاب ، وتثير القلاقل ، فأهل الشام كما هو معلوم من سلالات عربية تتوزعهم قبائل كبيرة سكنت الشام قبل الفتح مثل « الطائيين » و « الكلبيين » وقبائل أخرى جاءت مع القرامطة من العراق والخليج وعمان حينما غزوا الشام ، ومصر مثل « سليم » و « بني هلال » وغيرهم .

وفي شمالي الشام ، حيث حلب وجدت « الأسرة الحمدانية » وهي أسرة أرستوقراطية من قبيلة « تغلب » أعظم قبائل « ربيعة » ولم تكن معروفة أيام الأمويين ، ولكنها ظهرت أيام العباسيين ، فسعت إلى الحصول على الحكم المطلق في بغداد ، ولم تتمكن ، فأقطعتها الخلافة العباسية نواحي الشام ، والجزيرة للتخلص منها ، على أن تحمي ثغور المسلمين فيها ، ولكن هؤلاء الحمدانيون لم يستطيعوا بسبب انغماسهم في حياة الترف ، فكانوا يبنون القصور المنيفة ، كما فعل « سيف

الدولة » مؤسس دولتهم الذي حوّل نهر « قويق » في حلب إلى قصره . وكانوا يتخذون الجواري الجميلات من الروم . ويتصرفون تصرفات مشبوهة . ولهذا نرى الخليفة المعز لدين الله يحذر قائده « جوهر الصقلي منهم حينما سيّره لفتح الشام بقوله :

«إنهم ... غدّارون لا ثقة فيهم ... وانهم يتظاهرون بثلاثة أشياء . وليس لهم فيها نصيب .

يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب . ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله . ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا ولا للآخرة » وقد عرف عنهم بأنهم ساعدوا القرامطة على الفاطميين . وتحالفوا مع « الروم » وخضعوا إليهم . وفضلوا حكمهم على حكم الفاطميين .

ونعود إلى التحدث عن « أبي ركوة » فنقول :

بدأ « أبو ركوة » أعمالهفي منطقة « برقة » بعد أن جمع عناصر من البربر ومن العرب . وشارك في ذلك « الزناتيون » المعروفين بعدائهم للفاطميين . فاستولى على عدد من القرى . والمدن . ثم ذهب إلى « قرنة » فحاول أهلها الدفاع عنها . ولكن القبائل البربرية الجائعة اقتحمتها . وقتلت كل من فيها . ثم ساروا نحو برقة نفسها . فقاتلهم عسكرها قتالاً شديداً .

ودفعوهم عن المدينة في أول الأمر . وفي أثناء ذلك جاء عسكر من البربر « اللواتيين » فأسرع « أبو ركوة » بمقابلتهم . ووقع قتال شديد بينهما ، واضطرها إلى التفرق في الشعاب . ثم عاد بنفسه لحصار « برقة » بشدة . وكان أهلها قد بنوا السور ، والخندق . فقاتلوه قتالاً شديداً مع أنه فرّق الجند على السور ، ونصب المنجنيقات لدك الأسوار . وقد ضيّق على أهلها واشتد بهم الجهد ، وماتت الجنود ، والمواشي . وبقيت « برقة » عدة شهور محاصرة .

وعندما جهّز الحاكم بأمر الله جيشاً من المشارقة بقيادة « ينال » التركي ، نادى « أبو ركوة » بالرحيل ، ورفع الحصار عن « برقة » وقصد « ينال » الذي لم يكن يعرف طبيعة الأرض التي جاء ليحارب عليها . فضلّله اتباع « أبو ركوة » وساروا به بين التلال العالية . والأودية والممرات الضيقة . فألقوا على جنده الصخور من أعلى التلال ، ثم قادوه أخيراً إلى موضع يعرف « بعيون النظر » وهناك أجهز المغاربة الذين انضموا إلى « أبي ركوة » على الجيش الفاطمي ، أما القائد « ينال » فوقع أسيراً ، وعندما جيء به إلى « أبي ركوة » أمره بأن يلعن الحاكم بأمر الله فبصق « ينال » في وجهه ، وهنا أمر « أبو ركوة » بقتله . وتقطيعه إرباً إرباً .

بعد هذا الانتصار سلمت « برقة » « لأبي ركوة » فلمّا دخل إليها قتل كل من كان فيها من الفاطميين وأتباعهم . كما نهب المدينة . وهنا أرسل إليه الحاكم بأمر الله جيشاً آخر بقيادة « فاتك » ولكنه هزم في موقعة « الحمام » .

وأخيراً زحف كما ذكرنا إلى الديار المصرية . وفي قواته عرب « بني قرّة » من جهات الاسكندرية بالبحيرة . فجهّز الحاكم جيشاً من عرب الشام . والترك . والديلم . والسودان . فهزم « أبو ركوة » بعد سلسلة من المعارك في « الفيوم » وبعد ذلك أراد تغطية فشله بأن ذهب إلى « الجيزة » ولكن أهلها هزموه . فعاد إلى الصعيد . وجاء بجيش قدر عدده بسبعين ألف . ولكن في موقعة « رأس البركة » الأخيرة دارت الدائرة عليه . فانهزم إلى بلاد « النوبة » ولكن ملكها « روفائيل » سلّمه إلى القائد « فضل » الذي جاء به إلى القاهرة.

إزاء هذه الأحداث كان موقف « الزيريين » حكام المغرب من قبل الفاطميين غامضاً . فلم نسمع أنهم انتصروا للحاكم . ومعنى هذا أنهم كانوا يريدون سقوط دولة الحاكم بأمر الله ليصفى لهم جو المغرب من جهة . ومن جهة أخرى فإنهم كانوا غير راضين عن معاملة الخليفة الفاطمي للمغاربة .

ويذكر التاريخ :

إن « باديس بن زيري » لمّا وصل إلى القاهرة بطريقه إلى الحج سنة ٣٩٦ هـ. وكان ذلك أثناء قيام ثورة « أبي ركوة » . . . سأله الحاكم عن « أبي ركوة » ؟ فعظّم « باديس » حاله وذكر قوته ، وكثرة جموعه ، والحاكم بأمر الله صامت ، وعند رجوعه من الحج أخّره الحاكم ليشهد الأفراح التي أقيمت بمناسبة الانتصار على « أبي ركوة » وفي هذا إرهاب «لباديس» وإعطائه درساً .

ومهما يكن من أمر فإن المغرب بقي مرتبطاً برباط الود التقليدي بالحاكم ، ففي سنة ٤٠٠هـ. ذهب « باديس » إلى « طرابلس الغرب » وأخرج منها قبيلة « زناتة » ، وفي سنة ٤٠١هـ. أرسل الحاكم هدية إلى « باديس » وابنه « المنصور » فتلقوها بالبنود ، والطبول ، وفي سنة ٤٠٤هـ. وصلت سجلات من الحاكم بإضافة « برقة » وأعمالها إلى « باديس » وفي سنة ٤٠٥هـ. أرسل « باديس » هدايا للحاكم كما أرسلت أخت « باديس » هدية إلى الأميرة « ست الملك ».

أما « صقلية » فقد ظلّت على ولائها للدولة الفاطمية ، « فيوسف » وابنه « جعفر » وكان الحاكم قد منح « يوسف » لقب « ثقة الدولة » ، وولده « جعفر » « تاج الدولة » ولما

أسقط الحاكم جميع الألقاب في الدولة أبقى على هذين اللقبين .
وذكر التاريخ :

إنه سنة ٤٠٥ هـ.قام المغاربة بثورة . فتغلب عليهم « جعفر » ولكن فيما بعد عادوا واشترطوا على « يوسف » إبعاد ابنه « جعفر » إلى مصر . فأرسله إلى الحاكم . وولّى بدلاً عنه ابنه الثاني « أحمد » المعروف « بالأكحل » وقد ظلّ على ولائه للفاطميين ، ولم يتغيّر .



النظم الادارية والقوانين في الدولة الفاطمية

امتازت الدولة الفاطمية في عهد «الحاكم بأمر الله» بنظمها الجديدة ، والغريبة على المجتمع ، وهذه النظم التي سبقت عصرها هي من إبداع الخلفاء الفاطميين الذين عرفوا بثقافتهم وتطلعهم ، وتقدمهم في مجال الرقي ، فتلك النظم كانت جديدة ، ومبتكرة في قواعد الحكم ، والإدارة وان الشعب المصري لم يشاهد مثلها ، أو يسمع بها قبل ذلك . ومن الواضح أن مصر عاشت في ظلها زهاء قرنين كاملين .

فمما لا شك فيه أن الدولة الفاطمية نشأت بادىء ذي بدء في قفار المغرب كدولة عسكرية ساذجة بدائية تقوم على مجموعات من القبائل ، ولكن لمّا اتسع ملكها ، وعظم سلطانها بافتتاح مصر ، والشام ، شعر الخلفاء الذين يقودوها بالحاجة إلى التوسع في النظم السياسية ، والإدارية التي يقوم عليها

هذا الملك الواسع ، ولم يكتفوا بالاعتماد على الخطط العسكرية ، والدينية ، والمدنية المعروفة ، بل جعلوا اعتمادهم على الاصول ، والنظم ، والخطط الدستورية وفقاً لحاجة الدولة ، وأهدافها ، ومكانتها . فكانت « الوزارة » أول منصب رتّبها الفاطميون في عهد « العزيز بالله » ، وكان الخليفة قبل ذلك يتولى هو بنفسه إدارة جميع الشؤون ، ومن المعروف أن أول وزير في الدولة الفاطمية كان هو « يعقوب بن كلس » سنة ٣٦٨ هـ . ومن ذلك الحين قامت خطة الوزارة ، بيد أنها كانت تأخذ أسماء أخرى فتارة يُسمّى رجل الدولة الأول وزيراً ، وتارة وسيطاً ، وتارة سفيراً ، وفي بعض الأحيان أميناً أو قائداً ، أما الصلاحيات فكانت واحدة ، وهي لا تخرج عن كونها مهمة يضطلع بها كبير رجال الدولة ومرجعهم الأعلى ، وصاحب الحق بالتوقيع عن الحضرة ، ومراجعة جميع الشؤون الهامة على يد مختلف الكتّاب ، وأصحاب الدواوين ، وفي أواخر عهد « الحاكم بأمر الله » أعيدت صفة الوزارة فتولاها « علي بن جعفر بن فلاح » سنة ٤٠٨هـ. ولقب « وزير الوزراء ذو الرئاستين الأمير المظفر قطب الدولة » واستمرت خطة الوزارة على حالها حتى أواخر عهد الخليفة الثامن « المستنصر بالله » وكان الأغلب أن يتولاها

رجال مدنيون ، أو أصحاب أقلام إلاّ في ظروف استثنائية تولاهـا رجـال سيف مثل « برجوان » و « الحسين بن جوهر الصقلي » قائد القواد ، و « علي بن صالح الروزباري ».

وإلى جانب الوزارة ، وهي خطة الحكم العليا كانت ثمة عدة مناصب عسكرية ، وإدارية عالية منها وظيفة : صاحب الباب ، أو حاجب الحجاب ، وهو الذي يلي الوزير في المرتبة ويتولىّ النظر في المظالم – ولم يوجد هذا المنصب إلاّ في ظل الوزارة المدنية – أما في وزارة أصحاب السيف فكان الوزير هو الذي يتولىّ النظر في المظالم ، ومنها وظيفة الأسفهسلار ، وهو القائد الأعلى للجيش ، وإليه النظر في أمر الجند ، وجميع الشؤون العسكرية ، ومنها عدة تختص بخدمة الخليفة مثل : حامل المظلة ، وحامل السيف ، وحامل الرمح ، ويتبع هؤلاء حملة السلاح أو الركابية ، وصبيانهم ، وهم فرق من الحرس الملكي ، ومنها ولاية القاهرة ، وولاية مصر « الفسطاط ».

وأما الدواوين فهي تماثل مختلف الوزارات في عصرنا ، فقد كانت تشمل ديوان الانشاء ، والمكاتبات ، وكان متوليه من أعظم رجال الدولة ، ومن أقطاب الكتابة والبلاغة ، ويعرف في الدولة الفاطمية بكاتب « الدست » الشريف ،

وينعت « بالأجل » ، ويتولى النظر في المكاتبات الواردة ، والصادرة ، فيعرضها على الخليفة ، ويستشيره في كثير منها ، ويعاونه عدد من أكابر الكتاب منهم صاحب التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم ، وهو يليه في المرتبة وله من الخليفة مكانة خاصة لأنه جليسه ، وقارئه ، وصاحب التوقيع بالقلم الجليل ومهمته أن يشرف على تنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق ، وكانت المظالم ترفع أولاً إلى صاحب القلم الدقيق فيوقع عليها بما يقتضيه أمر الخليفة ، أو الوزير ، أو بما يراه هو ، ثم تحمل إلى صاحب القلم الجليل فيفصل فيها ما أجمل الأمر الأول ، وتحمل بعدئذ إلى الخليفة فيوقع عليها ، ثم تسلّم إلى أربابها ، وينفذ ما فيهـــا .

وهناك ديوان الجيش ، والرواتب ، ولا يتولاه سوى المسلمين ، وصاحبه مرجع لشؤون الجند ، والخيل ، والإقطاعات ويلحق به ديوان الرواتب ، وهو المختص بالنظر في الأرزاق والجرايات ، وديوان الاقطاع ، وهو المختص بالنظر في شؤون الاقطاعات ، وديوان الجهاد ، ويقال له : ديوان العمائر ، ويختص بالنظر في أمر الاساطيل البحرية المدنية — والحربية ، وإنشائها وتسييرها ، والإنفاق على رجال البحر ، وكان للدولة الفاطمية عناية خاصة بإنشاء الاساطيل وحماية الثغور ،

ولاسيما سواحل الشام التي كانت معرضة للغزوات البيزنطية ، وديوان المجلس ، وهو مرجع الدواوين كلها ، وفيه عدة كتّاب يختص كل منهم بمجلس منفرد ، ويتولى صاحبه التحدث في شؤون الاقطاعات ، والأرزاق لدى الخليفة مباشرة ، وديوان النظر ، وهو ديوان المال ، ويتولاه وزير ثقة ؛ اليه مرجع شؤون الأموال العامة للدولة ، وضبط الداخل والخارج ، والمحاسبات ، وديوان التحقيق ، ويختص بالمقابلة على الدواوين ، ومراجعة أعمالها ، والتحقق من انتظامها ، كما يدل على ذلك اسمه ، وديوان الاحباس ، أو الأوقاف ويختص بالنظر في شؤون الأحباس العامة ، والخاصة ، والإشراف على غلتها ، وإنفاقها في وجوهها الشرعية ، وديوان المواريث ، ويختص بشؤون المواريث ، وضبط أحكامها ، وهناك ثلاثة دواوين إدارية هي :

ديوان الصعيد ، وديوان أسفل الأرض ، أو الوجه البحري ، وديوان الثغور ويعني كل منها في شؤون الأقاليم الإدارية التي تدخل في اختصاصه ، وأما الوظائف الدينية فكان أهمها وأعظمها قدراً : منصب « قاضي القضاة » . فقاضي القضاة هو أعظم زعيم ديني في الدولة ، واليه مرجع الأحكام الشرعية في العبادات ، والمعاملات ، والحدود –

أعني في الشؤون الدينية ، والمدنية ، والجنائية ، والنظر في شؤون السكة « دار الضرب » وشؤون المساجد وأئمتها ، وسائر المتصرفين فيها ، وكان اختصاصه يشمل مصر ، والشام ، والمغرب ، والحرمين ، ومركزه العام بالقاهرة « المعزيّة » ، وله نواب يختارهم لقضاء الاقطار الأخرى ، ويصدر سجل « مرسوم » تعيينه من الخليفة نفسه إذا كان الوزير من رجال القلم ، وفي عهد وزراء السيف كان سجل القاضي يصدر من الوزير مباشرة .

ومن الوظائف الدينية الهامة منصب « المحتسب » واختصاصه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة ، ، ومن ذلك الإشراف على الاداب العامة ، وألاّ يخلو رجل بامرأة ذات محرم ، وضبط شؤون المكاييل ، والموازين ، ومراقبة أحوال المطاعم ، والمشارب العامة حتّى لا يغش الجمهور ، ولا ينجس فيما يقدم إليه ، والسهر على نظافة المساجد وإنارتها ، وحمايتها من غشيان الباعة ، والمتطفلين ، وتنفيذ السجلات الخاصة بالذميين وفيما فرض عليهم ، وتأديب المخالفين ، وزجرهم ، وله نواب في سائر الأقاليم يقومون عنه بمثل هذه المهام ، وكانت أعمال الحسبة تسند أحياناً إلى متولي الشرطة والظاهر أن نظام « الحسبة »

يشبه في كثير من الوجوه نظام النيابة العامة في عصرنا ، وان المحتسب يشبه في مركزه ، واختصاصاته في بعض الوجوه مركز « النائب العام » .

ومنها وكالة بيت المال ، ويتولاها ثقة من رجال الإختصاص ويفوض اليه الخليفة النظر في شؤون المالية ، وبيع ما يرى بيعه ، ويرى ما يرى ابتياعه من المتاع ، والنظر في شؤون الرقيق ، وإنشاء ما يحتاج إليه الخليفة من الأبنية ، والسفن ، وما يختص به .

وكان إلى جانب كل هذه المناصب ، والاختصاصات ، مناصب تختص بخدمة الخليفة ، والقصر ، وقد أشرنا إليها ، وأهمهـــا :

حامل المظلة ، والسيف، والرمح بيد أن أهمها وظائف الاساتذة « المخيلين » ومنهم « صاحب المجلس » وهو الذي يتولىّ الاشراف على المجلس الذي يجلس فيه الخليفة وأخطار رجال الدولة بحضوره ، وصاحب الرسالة، وهو الذي يتولّى إبلاغ رسالة الخليفة إلى الوزير وغيره ، ويتولى زمام القصر ، وهو المشرف على شؤون القصر بوجه عام ، وصاحب الدفتر المعروف بدفتر المجلس ، وهو المتحدث على الدواوين

الجامعة لشؤون الخلافة ، وحامل الدواة ، وهي دواة الخليفة ، ومتولّي زمام الأقارب . وهو المشرف على شؤون الاسرة الفاطمية ، وأعضائها ، وزمام الرجال ، وهو المتولّي إعداد طعام الخليفة ، والنظر في شؤون الخدم ، وصبيان الخاص ، ومن رجال الخاص عبيد الخليفة ، وخدمه ، والطبيب الخاص ، ويعاونه عدة أطباء آخرين ، وقرّاء الحضرة وهم الذين يقرأون القرآن بحضرة الخليفة ، والشعراء وهم يتبعون ديوان الانشاء .

وقد أنشئت في عهد الخلافة الفاطمية لأول مرة هيئة رسمية خاصة للنظر في شؤون الأسرة العلوية ، والمنتسبين إلى «آل البيت » وعرفت هذه الهيئة يومئذ « بنقابة الطالبيين» ثم أنها عرفت في العصور المتأخرة « بنقابة الاشراف » ولاتزال قائمة إلى يومنا وكان يتولّى النظر بشأنها واحد من أكبر شيوخهم ، وأجلهم قدراً ، ومهمته السهر على صحة الانساب واثباتها ، ورعاية شؤون الاسرة ، وقضاء مصالحهم ، وعيادة مرضاهم ، والسير في جنائزهم ، والعمل على توثيق أواصر الوفاق ، والمحبة فيما بينهم .

الحركة العلمية
في عهد الحاكم بامر الله

قامت الدولة الفاطمية في المغرب ، وفي مصر على دعائم من العلم ، والعقل ، وبالرغم من أن مصر كانت نصيرة العلوم والآداب في عهد الدولة « الإخشيدية » فإن الفاطميين جاءوا ليضيفوا إلى ذلك اهتمامات أوسع مدى ، فلمّا قامت الدولة الفاطمية بمصر شغلت بادىء ذي بدء بتوطيد ملكها الفتي ، ولم تولِ الحركة العلمية كبير عناية ، بيد أن الحركة الفكرية لم تلبث أن لاقت ازدهارها في قيام الجامعة الفاطمية الكبرى « الأزهر » ثم أنشئت فيه بعهد العزيز بالله تلك الحلقات الدراسية التي استحالت فيما بعد إلى محاضرات جامعية ، كما نظمت مجالس الحكمة في القصر ، وفي الجامع « الأزهر » ، وأنشأ الحاكم بأمر الله فيما بعد جامعة « دار الحكمة » حسبما فصلنا .

ويجب أن لا ننسى ما كان للوزير « ابن كلس » من أثر بارز في توجيه « الأزهر » إلى مصيره الجامعي ، وقد أدرك « الحسن بن زولاق » المصري عميد الحركة الأدبية في عصر بني الاخشيد الدولة الفاطمية ، وأخذ بقسطه في زعامة الحركة الأدبية في عهد المعز والعزيز ، ومما يجب أن يذكر أن المعز لدين الله أولاه عطفه ، ورعايته ، وكان « ابن زولاق » قد ألّف كتاباً عن المعز ولكنه فقد .

وفي عصر الحاكم بأمر الله استقرت الحركة الأدبية ، وقامت « دار الحكمة » وإلى جانبها « دار العلم » التي تحتوي على المكتبة ، وكانت تغذي الحركة العقلية إلى جانب « الأزهر » والمسجد الجامع « جامع عمرو » التي كانت حلقاته العلمية ، والأدبية دائماً عنصراً بارزاً في تكوين الحركة الأدبية لذلك العصر ، وأولى الحاكم الحركة العقلية شيئاً من رعايته ، فأجزل النفقة « لدار الحكمة » وزودها بخزائن الكتب المفيدة ، وعقد مجالس المناظرة للعلماء ، والأدباء ، وغمرهم بصلاته ، وقرّب إليهم عدة من أقطاب المفكرين ، والأدباء في ذلك العصر أمثال : « المسبحي » ، و « محمد بن القاسم بن عاصم » شاعر الحاكم بأمر الله ، وجليسه ، وكان من أشعر شعراء العصر ، و « أبي الحسن علي بن محمد الشابشتي » صاحب كتاب « الديارات » .

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن الحركة العلمية في عهد الحاكم بأمر الله من الوقوف قليلاً أمام العلاّمة الرياضي والمهندس الكبير « الحسن بن الهيثم » الذي اشتهر بكتابه « علم المناظر » في البصريات الذي ترجم إلى اللاتينية وصار كتاباً مدرسياً في أوروبا ، ومن المعلوم أن « ابن الهيثم » كان يعيش في دمشق فسمع الحاكم بأمر الله عنه كلاماً خلاصته :

لو سمح لي لعملت في النيل عملاً يغني مصر ، فطلبه الحاكم وعندما جاء إلى مصر سمح له بزيارة موقع « الشلالات » في « أسوان » فذهب وأجرى دراسات واسعة ، ثم عاد إلى القاهرة وقام بدراسة موازنة الدولة وقدراتها المالية وأخيراً جاء إلى مقر الحاكم وأعلن له عدم وجود الإمكانيات اللازمة للقيام بالمشروع العظيم ، فشكره الحاكم على صراحته وأمره بالبقاء في مصر قريباً من « دار الحكمة » ومشمولاً برعايته .

ويجب أن لا يسهى عن بالنا أن الحاكم بأمر الله طلب إلى والي « حلب » أن يرسل إليه « أبا العلاء المعري » ولمّا اعتذر أمر بأن يترك له ريع الدولة من « معرة النعمان » طيلة حياته .

وطلب الفيلسوف « أحمد حميد الدين الكرماني » من العراق لإلقاء سلسلة من المحاضرات في « دار الحكمة » ضد

الكفر ، والإلحاد ، والمغالاة ، فجاء إلى مصر ، وقام بالمهمة ، والكرماني عرف بأنه « حجة العراقين » وصاحب كتاب « راحة العقل » بالإلهيات ، ومن المشهور عنه أنه وضع في مصر رسالة « مباسم البشارات ، ورسالة الواعظة » ، ومن البارزين في ذلك العصر « علي بن يونس » الفلكي المشهور ، وقد ذكر أن الحاكم قرّبه ، ومحضه عطفه ، وكان والده العزيز بالله قد أقام له مرصداً على جبل « المقطّم » وقد تمكن من أن يرصد منه كسوفين للشمس ، ولهذا العالم كتاب « الزيج الحاكمي » وقد كتبه تخليداً لذكرى الحاكم بأمر الله .

ويذكر التاريخ :

إن « ابن يونس » أول من اخترع « بندول » الساعة ، وليس « غاليليو » .

الانشاءآت والعمران

لم تشغل الخليفة الحاكم بأمر الله الأحداث الجسام ، والاضطرابات في الدولة سواء في الداخل ، أو في الخارج عن الأعمال العمرانية ، والمآثر الخيرية الجليلة .

فقد عني بتجديد الجامع «الأزهر» ، وأدخل عليه الإصلاحات الضرورية ، وأنشأ جامعة «دار الحكمة» ودار «العلم» الشهيرة ، كما أنشأ مسجده المعروف بجامع «الحاكم» أو الجامع «الأنور» وكان والده العزيز بالله قد بدأ بإنشائه ولما فرغ من بنائه عني بفرشه ، وتأثيثه عناية كبرى ، وزينه بالستور الفخمة ، والتنانير الفضيّة ، وقد صلّى فيه لدى افتتاحه ، وكان يوماً مشهوداً ، وأنشأ جامع «راشده» وأشرف بنفسه على تأثيثه ، وتزيينه ، وقد صلّى فيه ، وافتتحه ، وخطب في الناس ، وأنشأ جامع «المقس» وأنشأ في سفح جبل «المقطم» مصلّى عرف بمصلّى «العيد» وكان يختلف إليه من حين لآخر .

وفي سنة ٤٠٣هـ. أمر الحاكم بأمر الله بإحصاء المساجد التي لا غلة لها ، فوجدت ثمانمائة وثلاثين مسجداً فرصد لها النفقات اللازمة وأجرى الشعائر فيها ، وفي سنة ٤٠٥هـ. وقف الحاكم عدة ضياع[١] ، وأملاك على القراء ، والفقهاء ، والمؤذنين وعلى نفقات المستشفيات ، والعمال والمستخدمين ، وثمن الأكفان للفقراء ، كما وقف على «الأزهر» ، و «دار الحكمة» قسم من أملاكه الخاصة ورباعه[٢] «بالفسطاط» .

ومن مآثر الحاكم أنه أغدق المنح على الأساتذة الموظفين «بدار الحكمة» وأعطاهم ما يكفل لهم حياتهم . . .

وذكر التاريخ :

إنه بنى قصر «اللؤلؤة» على الخليج وهو منتجع خاص به.

الوزراء في عهد
الحاكم بامر الله

١ – « علي بن عمر العدّاس » :

مغربي الأصل ، كان ضمن القائمين على أمور الخراج ، وقد ضمن في أيام المعز لدين الله ثورة « بوصير » فخلع عليه سنة ٣٦٤ هـ ، ثم أن العزيز بالله ولاّه « الوساطة » بعد موت « يعقوب بن كلس » ولم يلقبه بالوزير ، ومكث في منصبه هذا مدة سنة .

كان ينظر في الأموال ، ويشرف على العمّال ، وأمر أن لا يصرف شيء إلاّ بتوقيعه ، ظلّ في عمله بديوان الاستيفاء في خلافة الحاكم بأمر الله .

٢ – « جعفر بن الفضل بن الفرات » :

اختلف المؤرخون على المدة التي قضاها في الوزارة بعهد

الحاكم ، ومن خدامه ، وقد ثبت أنه عزل عن وظيفته في أول شهر تولّى فيه الحاكم الخلافة .

٣ – « الحسن بن عمّار » :

أمين الدولة . . . شيخ كتامة ، وسيدها ، أول من أخذ لقباً من رجال الدولة ، استبـد بالأمر ، منتهزاً صغر سن الخليفة . . . ذكرنا أخباره .

٤ – « برجوان – أبو الفتوح » :

خصي أبيض من الصقالبة ، تربّى في قصر الخلافة ، وصار ولياً على الحاكم بأمر الله ، وقف بوجه « ابن عمّار » وانتهى نهاية مفجعة . . . ذكرنا أخباره .

٥ – « الحسين بن جوهر » :

قائد القواد ، كما لقبه الحاكم ، أعطي صلاحيات مطلقة للحكم ، ولكنه انحرف وفرّ حيث ساهم بثورة « أبي ركوة » انتهى نهاية غامضة .

٦ – « صالح بن علي الروزباري » :

عراقي الأصل ، التحق بخدمة الفاطميين ، وتقلّد ديوان الشام ، ثم تولّى « الوساطة » بعد عزل « الحسين بن جوهر » لقبه الحاكم ، بثقة ثقات السيف ، والقلم » .

٧ — « منصور بن عبدون » :

نصراني ، تولّى ديوان الشام ، اتّهم بالاختلاس ، تولّى الوزارة بعد عزل « صالح بن علي » ثم عزل بعد حملات من « الحسين بن جوهر » .

٨ — « أحمد بن محمد القصوري » :

أحد كتّاب الدولة البارزين ، والأغلب أنه عراقي . . . بقي في الوزارة عشرة أيام .

٩ — « زرعة بن عيسى بن نسطورس » :

ابن الوزير « عيسى بن نسطورس » وهذا من القلائل الذين ظلوا في منصبهم بعد وفاة الحاكم بأمر الله .

١٠ — « الحسن بن طاهر الوزّان » :

كان متولياً لبيت المال ، ثم لقب بأمين الأمناء ، وتسلّم مسؤولية الوزارة ، وكان حريصاً على أموال الدولة .

١١ — « الحسن وعبد الرحمن أبناء أبي السيد » :

أقامهما الحاكم بأمر الله معاً في الوساطة ، بعد أن ضمنا أموال الدولة ، وحرصا عليها . . . بقيا اثنين وستين يوماً في عملهما .

١٢ – « علي بن جعفر بن فلاح » :

من أجل الوزراء الكتاميين ، ومن أشهر قواد الدولة ، هو وأخيه « سليمان » وهما نجلا فاتح الشام « جعفر بن فلاح » بعهد الخليفة المعز لدين الله ، وكان « ابن عمار » قد أرسلهما إلى الشام لحرب « منجوتكين » عندما أزمع الحضور إلى مصر بتحريض من « برجوان » ، وظلا فيما بعد ، يديران أمور الشام حتى وزر برجوان فحرّض عليهما أهل الشام . . . استعان الحاكم « بعلي » في إقرار النظام في الشام بعد فتنة « آل الجرّاح » ثم قلّده « الوساطة » وأضيف إليه ولاية « الاسكندرية » و « تنيس » و « دمياط » والشرطتين العليا ، والسفلى ، والحسبة . قتل اغتيالاً .

١٣ – « صاعد بن عيسى بن نسطورس » :

ثالث فرد من آل « نسطورس » يلي « الوساطة » .

١٣ – « المسعود بن طاهر الوزّان » :

حلّ محل أخيه في ولاية بيت المال فترة قصيرة ، وبعده حلّ « عمّار بن محمد » .

١٤ – « عمّار بن محمد » :

اختاره الحاكم للتوقيع عنه سنة ٤١١ هـ . أخذ البيعة للخليفة الظاهر سنة ٤١١ هـ. كما دبّر شؤون الخلافة بتفويض من « ست الملك » بعد وفاة الحاكم بأمر الله .



الحاكم بامر الله
امام المجتمع الفاسد

عرف عن الحاكم بأمر الله ، ولعه ، وغرامه بالتجول منفرداً في شوارع عاصمة دولته وأزقتها ، وساحاتها في الليل، وفي النهار بقصد دراسة أحوال الشعب ، والاختلاط بمختلف طبقاته لمعرفة كل شيء عن حياته ، وطرق معيشته ، وما يشكو منه ، وإننا عندما نراه يأمر بتعليق المصابيح على أبواب الحوانيت ، والدور ، والأمكنة العامة الأخرى في عاصمة دولته ، فإن غايته أن تبدو المدينة في الليل ، وكأنها شعلة مضيئة ، ممّا يسهل عليه استطلاع أحوال الشعب ، وأخباره والاطلاع على كل ما يجري في بلده . ويذكر التاريخ :

إن الشعب المصري كان في ذلك العصر يعيش حياة الرغد، والرفاهية ، والبسطة في العيش ، لهذا اتخذ من المصابيح في الليل فرصة للخروج إلى مواطن اللهو ، والسمر ، والقصف ،

وهكذا كانت تسطع ميادين القاهرة بالوقود ، والزينات ، وتغص بصنوف المرح ، واللهو : فأنفقت الأموال الوفيرة ، في المآكل ، والمشارب والسماع ، وظهرت النساء في المجتمعات بكثرة ، واشتد تيار المجون ، والغواية ، والفجور ، وأصبحت القاهرة بأنوارها الساطعة ، ومناظرها المرحة ، وملاهيها الصاخبة ، وكأنها من مدن الفجور السائرة بخطى حثيثة إلى مهاوي الانحلال .

في هذه الصفحات ، سأتخطى حدود التاريخ ، وسأضرب بكل ما كتب عن الحاكم بأمر الله عرض الحائط ، لأن هذا التاريخ – أقولها بصراحة – لم يكن منصفاً ، ولا عادلاً بحق هذا المصلح الاجتماعي الذي ضرب الرقم القياسي بخدماته ، وإصلاحاته للمجتمع الذي عاش فيه؛ تلك الإصلاحات التي سبقت عصره ، وفاقت كل ما كان قبلها ، وما جاء بعدها .

ومهما يكن من أمر فهذا حال كل مصلح اجتماعي يأتي لأمة غير أمته ، ولعصر غير عصره ، وخاصة عندما يسود التخلف المجتمع ، وتعصف به رياح الفجور ، والفساد .

كان الحاكم بأمر الله عالماً ، وطبيباً ، وفيلسوفاً ، وقديساً ، وكان رجل دولة وسياسي ماهر لا يعادله أحد في عصره ،

ولا بعد عصره ، ولكن مع كل أسف لم يقدره المجتمع الغارق في الجهل ، كما لم يفهمه ، وهكذا ضاع في متاهات الظلام ، وراح يستنبط الأفكار ، والخيال ويخترع الروايات ، والأساطير عن ذلك العبقري الذي كانت حياته من أطرف ما قرأنا ، وسمعنا كمـــا أن في موته كل ما يوقظ النفس ، ويعرض للاستفسار .

يذكر التاريخ :

إن الحاكم بأمر الله ، منع أكل « الملوخية » و « الجرجير » و « الترمس » و « التوكلية » . وعاد هذا التاريخ ليذكر : بأن سبب هذا التحريم قضايا دينية كقولهم : لأن عائشة كانت تحب « الجرجير » أو معاوية كان يحب « الملوخية » وما أشبه ذلك من الأقوال التافهة الرخيصة التي نجل الحاكم بأمر الله عن أن ينحدر إلى حد التفكر بها . . . أجل . . . حبذا لو أن هؤلاء المؤرخين عادوا ، واتعبوا أنفسهم بالتفتيش عن الحقائق ، إذن لكانوا قدموا لمجتمعهم الخدمات الإنسانية ، وأظهروا أنفسهم أمام العالم بأنهم من أمة متحضرة ، تسير في سبيل الرقي والتطور . . . مساكين هؤلاء . . . أقول ذلك : وكأني بهم لم يدركوا ان الإكثار من هذه المواد التي ذكرناها ، وكان الشعب المصري يفضلها على كل غذاء يقوي الغريزة الجنسية

ويزيد في كميات الدم ، ويغير الواقع النفسي ، ويضفي على الإنسان قابلية النزوع نحو الشر ، وهذا هو رأي الأطباء العالميين . . . إذن فإن الحاكم كان طبيباً منذ ألف عام يفكر بما لم نستطع نحن أن نفكر به اليوم .

ومنع الحاكم بأمر الله أكل « الدلينس » وهو نوع من الصدف الصغير يؤكل ما بداخله نيئاً ، ومملحاً ، وهذا ثبت أنه يورث « الدود » في الإمعاء .

ومنع الحاكم بأمر الله ذبح الأبقار السليمة إلاّ في أيام عيد الأضحى ، لماذا ؟ كأني به رغب بالمحافظة على هذا الحيوان الأهلي الأليف الذي كان يؤدي الخدمات للمزارعين في مجال الحراثة فضلاً عن إمداده الإنسان بالطاقة الكبيرة من السمن ، والحليب ، والألبان .

فأين هو الجنون ، الذي ذكره التاريخ عن الحاكم ، وماذا عليه أن يفعل في مدينة كانت غارقة في بحر الفسق ، والإجرام ، والإثم ؟ أيبيح شرب الخمور ، ويطلق العنان للنساء أن يخرجن إلى الشوارع عاريات ؟ . ذكر التاريخ :

إنه حرم بيع الخمر ، والإتجار فيه ، كما منع « الفقّاع » وهو المسكر الذائع الصيت في ذلك العهد ، ولمّا لم يرتدع الناس ،

بادر إلى إتلاف الكروم ، ومصادرة خوابي العسل وكل ذلك للقضاء على الشر الذي استفحل ، وتحكّم بالمجتمع .

وحرّم صيد السمك الذي لا قشر له ، وكذلك بيعه ، والمعروف أن هذا النوع كان في طريق الانقراض في ذلك العصر .

أمّا القوانين الإصلاحية الأخرى التي أصدرها الخليفة الحاكم بأمر الله بشأن النساء واستئصال البغاء ، وإشاعة الآداب العامة في المجتمع لإعطاء فكرة صالحة للغرباء فهي على العموم تمتاز بالحكمة والعقل ومنها :

تحريم دخول الحمّام بلا مئزر ، وتحريم كشف الوجه في الطرقات العامة بالنسبة للنساء أو خلف الجنائز ، كما حرّم التبرج ، والتزيين والخروج ، وحرّم البكاء ، والعويل ، وراء الموتى ، كما منعهن من دخول الحمامات العامة ، أو الخروج في الليل ، أو زيارة القبور . . . فماذا في هذه القوانين؟ وهل يستحق الحاكم بأمر الله أن ينال بشأنها اللوم ، والذم ؟

وذكر التاريخ :

إنه حرّم مزاولة البيع ، والشراء في الليل ، وأنه منع

إقفال الحوانيت ، وشدّد على إزالة بيوت الخمّارين ، وهذه القوانين يراها البعض غريبة ، ولكن عندما ندرك أبعادها نراها تقوم على دعائم من الفكر ، والعلم .

وأمر الحاكم بأمر الله القضاء على الكلاب الشاردة أينما وجدت إلاّ كلاب الصيد ، فطوردت ، وأعدمت حتى خلت منها جميع الطرق ، والدور « هذا من ألف عام » ، كما أمر بقتل جميع الخنازير التي في مصر ، فهل يذكر هؤلاء الذين اتهموا الحاكم بالجنون أن الدول المتمدنة بعد ألف عام مدينة للحاكم بهذه الأفكار ؟

وعندما تعرضت مصر إلى نقص في مياه النيل،وقع الغلاء، والاحتكار فمنع الحاكم خزن أي مادة تزيـــد عن الحاجة ، كما حدد أسعار القمح ، وعاقب المخالفين بالموت . وأي جريمة عليه حينما يحرم لعب « الشطرنج » الذي يضيع أوقات العمل ، وهكذا صناعة التنجيم التي يتفرع منها « التدجيل » . وهل كان مجنوناً عندما شدّد على الجزارين بضرورة لبس البياض ، والنظافة ، وتغطية اللحوم بقماش أبيض كي لا يغط عليه الذباب ؟

أجل . . . كان الحاكم بأمر الله مصلحاً اجتماعياً ، قلّما

شهد العالم الإسلامي من يماثله عقلاً وفكراً ، وكان شخصية من أعجب ما عرفه التاريخ . . . فهي شخصية أسبلت عليها طاقة من السّر ، والخفاء ، فأثارت الدهشة ، والروع في كل تصرفاتها ، وأعمالها في الدنيا ، والآخرة .

كانت دنيا من الأساطير ، والإبداع ، والعبقرية ، والذهن الحاضر الهائم المضطرم الذي يأتي في بعض الحالات بنوع من التطرف مقروناً بالحكمة ، والسمو ، والتقدير ، والتأمل ، فتلك الشخصية استطاعت أن تفيض بأفكارها على المجتمع التي كانت تقبض عليه ، وتطبعه بطابعها العجيب .

لقد أراد الحاكم بأمر الله أن يصلح ذلك المجتمع بإدخال تعاليم عليه غير مألوفة بنظره في ذلك العهد ؛ فكان أن سخط عليه ، واتّهمه بالجنون تارة ، وبالطغيان أخرى ، وكأني بالمجتمع المريض الذي لم يفهم الحاكم هو المجنون العقلي ؛ بل هو الذي كان غارقاً في الظلام ، لا يفرق بين الخير ، والشر ؛ ولا يميز بين الخطأ ، والصواب .

لم يكن ينقص الحاكم بأمر الله شيئاً من أمور الحياة ؛ كان أمبراطوراً لا تغيب عن ممتلكاته الشمس ، وكان من أعرق بيوتات العرب حسباً ، ونسباً ، وإلى جانب ذلك كان يملك

الشباب ، والقوة والعلم ، والرجولة ، ومع كل هذا نراه ساهراً الليالي ، طائفاً الشوارع ، مرتدياً الخشن من الثياب على حماره وحيداً دون حراسة ، أو أبهة ، يتفقد الرعية ، ويتأكد من تنفيذ القوانين ، وإلى جانب كل هذا نراه يختلط بشعبه ويسمع ظلاماته، ويصدر أوامره بشأن الترفيه عنه وإسعاده، فأين هو الجنون الذي أرادوا أن يلصقوه به ، وأين الظلم من كل هذا ؟

كان عصر الحاكم بأمر الله ، من أغرب عصور التاريخ ، أو قل كان عصراً قائماً على الفساد في الحكم ، وعلى مبدأ الاغتيالات ، والسرقات ، والنهب ، وافتعال المؤامرات ، فماذا كان على الحاكم أن يفعل لإيقاف هذا الفساد الجارف ؟

كانت الاغتيالات ترتكب في الظلام ، فيضيع فاعلها ، ومدبرها ، ثم يأتي أعداء الحاكم لاتهامه بأنه هو وراء جرائم القتل التي تقع في العاصمة ، وكأني بهم أرادوا أن يصوروه سفاحاً ، وطاغية فطر على سفك الدماء ، وقتل الأبرياء . فهل نصدق ذلك ؟ وهل يكون طاغية من أقام « دار الحكمة » أول جامعة في العـــالم ، ومن هو جليس الفلاسفة ، والشعراء ، والحكماء ، ومن يبني الجوامع ، ويعطف على الفقراء ، ويزهد

في المال ، ويكره مظاهر الأبهة ، والعظمة ، وينقطع للصلاة والعبادة ، ويكتفي بالقليل من الطعام ؟ باعتقادي أن كل هذا جدير بالدراسة ، وحبذا لو أن المؤرخين تعرضوا لهذه الأمور ودرسوها قبل أن يقدموا على تدوين ما دونوه من وقائع لا يصدقها العقل .

نحن لا ننكر بأن الحاكم بأمر الله أمر بقتل بعض الوزراء ، والعمال الكبار ، ممن ثبت عليهم التلاعب ، والسرقة ، والفساد ، والإثراء ، وسلب أموال الشعب ، أو ممن اشتركوا بثورات ، ومؤامرات ضد الدولة .

لندع كل هذا جانباً ، فنحن هنا لسنا في موقف الدفاع عن الحاكم — لأنه خليفة فاطمي — ولكن دفاعنا ما هو إلا عن الحق الذي شمروا عن سواعدهم لمحوه ، أو القضاء عليه ، وأخيراً ما لنا ولهذا ، فعلينا أن ننتقل لموضوع آخر ، ذكر التاريخ :

إن الحاكم بأمر الله مارس الضغط على الذميين — اليهود ، والنصارى ، وفرض عليهم قيوداً صارمة. . . لماذا يفعل الحاكم كل هذا مع رعاياه ، وماذا يقصد من هذه التدابير الصارمة ؟ بينما نراه من جهة ثانية يستخدم بعضهم في مناصب عالية . . .

أما تدمير كنائسهم وأديرتهم دونما سبب ، فلا أعتقد أن الحاكم يأمر بذلك ، وهو الذي اشتهر بانفتاحه على كافة المذاهب ، والأديان ، وخاصة النصارى الذين يعتبرون أخواله .

لقد كان أعداء الخلافة الفاطمية في عهد الحاكم بأمر الله يقترفون الجرائم ضد المسيحيين ، واليهود ، وغايتهم زعزعة أركان هذه الدولة ، وإظهار الحاكم بمظهر الطاغية بالنسبة للعالم المسيحي،وأني حتى الآن لم أفهم ما هو غرض الحاكم بأمر الله من تهديم الكنائس ، وما الذي يدعوه إلى ذلك ، بينما هؤلاء المسيحيون لم يخرجوا على النظام ، ولم يعبثوا بالأمن ؟ أما وضع الإشارات المميزة فربما كان الغرض منها مراقبة من يقوم بأعمال مخلة بالأمن ، ومعرفة الطائفة التي ينتسب إليها ، بعد أن ألصقت جرائم كبرى بأناس أبرياء .

ومن جهة أخرى فلا بد من القول :

بأنه في عهد الحاكم بأمر الله انقسم النصارى « القبط » في مصر إلى فرقتين كان دأبهما شن الحملات على بعضهما البعض وهما :

« الملكانية » وكانت على مذهب « بيزنطة » .

و « اليعقوبية » والنسطورية وكلاهما له كنيسة مستقلة

عن بيزنطة لا سيما « اليعقوبية » أو « الأرثوذكسية » وهي ملة غالبية « قبط » مصر .

وفي عهد الحاكم بأمر الله اشتد نفوذ «الملكانية» بسبب أن والدة الخليفة كانت من هذه الطائفة ، وخاصة بعد أن تعين « أريستس » بطريركاً على بيت المقدس ، و « أرسانيوس » بطريركاً على القاهرة ومصر ، في تلك الفترة مارست الطائفة الملكانية ضغوطها ، واستبدادها على الطائفة الثانية . من هنا أصبح بالإمكان القول : إن الحروب الداخلية ، والمصادمات الدامية بين الفريقين كان يستعر أوارها في ذلك العهد حتى تصل أحياناً في عنفها إلى حد الهجمات على الكنائس ، وإشعال النيران فيها ، ونهب محتوياتها ، وكانت « الملكانية » هي المتغلبة على اعتبار أن عدداً كبيراً من أفرادها كان مضطلعاً بوظائف عليا ، ولم يسلم الحاكم من أعمال التدمير ، والاضطهاد فكان أعداءه ينسبون إليه تحيزه إلى « الملكانيين » أخواله ، وإلى المساهمة معهم بتدمير كنائس « اليعقوبيين » .

لقد قرأنا في كتب التاريخ سطوراً مليئة بالمدح للخليفة الحاكم ، وفي نفس الكتب قرأنا عبارات الذم ، وهذه المتناقضات تجعلنا مضطرين إلى عدم تصديق كل ما ذكر عن

هذا الخليفة الكبير . فكيف يكون ظالماً من نصب نفسه لإنصاف المظلوم من الظالم ، وكيف ننسب الجنون إلى إنسان عرف بأنه فيلسوف ، وعبقري ، وعالم ، ومصلح ؟ ما هذا الواقع المرير الذي نعيش فيه وأين نحن ؟ في الحقيقة لم يمر في التاريخ ، ولم نسمع أن أسرة من الأسر تعرضت في حياتها إلى ظلم المجتمع والناس ، وإنزال الأذى ، مثل هذه الأسرة الفاطمية ، ويقيني أن سبب ذلك تفوقها على الآخرين في كافة مجالات الحياة ، وفي مضمار الرقي والحضارة .

أجل . . . لقد اتهموا الحاكم بأمر الله بكل شيء . . . اتهموه بالجنون . . . بالظلم . . . بالطغيان ، وذهبوا إلى حد القول بأنه ادعى الألوهية ، كما قالوا بأنه أغرم بشقيقته « ست الملك » فهل بقي شيء في جعبة هؤلاء المتزمتون الرجعيون الذين تجردوا من كل القيم والشرف ، والأخلاق ؟

لقد ذكر التاريخ :

إن الحاكم تسامح مع الفرق الإسلامية الأخرى ، ولم تبادر منه أية بادرة تنم عن ترغيب ، أو تشويق لإخراج أحد عن دينه . وله قول مأثور في هذا المعنى :

« إن كل واحد حر في اختيار مذهبه ، وإظهار ما في ضميره » ولا إكراه في الدين .

وروى التاريخ أيضاً :

إنه سمح « للمالكيين » اتباع مذهب « مالك » بأن يدرّسوا مذهبهم « بدار الحكمة » ، واعتبر ذلك من المحاسن المأثورة .

هذا القول يؤيد ما ذهبنا إليه عن كره الحاكم بأمر الله لمبدأ التعصب الديني الذميم ، وعن تسامحه الجمّ مع الفرق الدينية الأخرى ، فقد ذكر التاريخ :

إنه عين في رئاسة القضاء بمصر قاضياً سنياً هو « ابن أبي العوام »وعندما قال له الناس : إنه ليس على مذهبك ، ولا على مذهب من سلف من أبائك . . . أجاب :

« هو ثقة ، ومأمون ، ومصري ، وعارف بالقضاء ، وبأهل البلد،وما في المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره » . وعرف عن الحاكم أنه أصدر تحريماً بمنع سب أعداء المذهب جرياً على سنة آبائه الحميدة ، كما حرّم اللعن لدرجة القتل ، وللحاكم مرسوماً بذلك نبسطه هنا :

بسم الله الرحمن الرحيم ،

من عبد الله ، ووليه « أبي علي » الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين إلى كل حاضر وباد : أما بعد :

فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم أية من كتاب الله المبين (لا إكراه في الدين) مضى أمس بما فيه ، وجاء اليوم بما يقتضيه الصلاح ، والإصلاح بين الناس أصلح ، والفساد والإفساد بينهم مستقبح ، إلاّ من شهد الشهادتين ، أحق أن لا تنفك له عروة ، ولا توهن له قوة ، بحي على خير العمل يؤذن المؤذنون ، ولا يؤذنون ، ويخمس المخمسون ، ويربع المربعون في الصلاة على الجنائز ، ولا يعترض أهل الروية فيما هم عليه صائمون ، ولا يشتم السلف ، ولا يبغي الخالف على من قبله خلف . . . تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عمّا كانوا يعملون . معشر المؤمنين :

نحن الأئمة ، وأنتم الأمة ، عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم تعملون .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على رسوله سيدنا محمد وآله الأكرمين .

ومن مآثر الحاكم بأمر الله وتدابيره أنه راقب التجار ، وأصحاب الحرف ، والصناعات مراقبة دقيقة لمنع الغش ، والتلاعب بالأسعار ، وكان يعاقب المخالف عقاباً صارماً ، ومن قوانينه أنه ألغى جميع الألقاب في الدولة بدءاً بنفسه .

أجل . . . لقد عرفنا أن الفاطميين عندما جاءوا إلى مصر . أطلقوا للشعب الحرية المطلقة بتناول حياتهم كما يريدون ، فكانوا يشربون الخمرة بكثرة . وفي ذلك الوقت اشتهرت مصر بصنع البيرة المسماة « الفقاع » . والنبيذ المسمى « المزر » . وعندما أصدر الحاكم أوامره بإضاءة الشوارع . والأسواق . والحوانيت بمصر . والقاهرة ليلاً اتخذ الناس ذلك سبباً لمبالغة الفرح والسرور . فخرجت النساء في الشوارع . والطرقات . وكان الناس يشربون الخمرة في الشوارع . والحوانيت كذلك امتلأت بيوت الفساد . والفجور . والبغاء . وساد مصر نوع من الإباحية العلنية .

فماذا على الحاكم بأمر الله . وهو خليفة المسلمين أن يفعل وهو يرى هذه العواصف المدمرة تجتاح رعاياه فتصيبهم في أخلاقهم وشرفهم ؟ ألا يجب أن يضع حداً لهذا المجون المتفشي في كل مكان ؟ أليس هو المسؤول عن صيانة الأخلاق والآداب ؟

ويذكر التاريخ :

إنه عندما منع شرب الخمر وصنعه . شربه الناس بالسر . وازداد تعلقهم فيه . فما كان منه إلا أن حرّم كل ما يدخل في صناعة الخمور ، فقطعت كروم العنب . وديس العنب في الطرقات . وكسرت جرار العسل . ودنانها . ومنع بيع

الزبيب ، ومع كل هذا فإن بعض المؤرخين الذين دأبوا على السخرية من أوامر الحاكم . ادعوا أنه لم يحرم الخمر تديناً منه ، وإنما حرمها عن الناس ، وأباحها لنفسه .

أما عن الحمّامات العامة . فقد ثبت أنها تحولت في عهده إلى مواخير ، وكانت مختلطة من الرجال . والنساء . وبدون مئزر . فعندما قرر الحاكم منع ذلك . فإن الفقهاء الذين جاءوا بعده وضعوا قيوداً صارمة على دخول الحمامات . ونظموها ، وجعلوا بعضها للرجال . وبعضها للنساء ، وقد ذكرنا أن الحاكم بأمر الله ضرب بيد من حديد على العناصر الفاسدة في دولته . فوضع حداً للهو وأصدر أوامره بإزالة المواضع التي كانت لأهل الفجور ، والفساد ، كما تتبع النساء العابثات . ومنـــع الجلوس في المقاهي . والحوانيت ، ولعب الشطرنج ، وذلك لرغبته في أن يتحول الشعب عن اللهو ويتفرغ إلى العمل النافع المفيد ، وهذه عقلية فريدة سبقت عصرها ، ولا ريب .

الدعوة الالحادية
واضطراب الدعوة

بلغت الدعوة الفاطمية . وأقصد بها الدعوة « الإمامية » في عهد الحاكم بأمر الله درجة عليا من الرقي والانتشار في مصر . والشام . والمغرب . وبلاد المشرق . فهرع الكثير من الناس إلى الانتساب إليها . والدخول في مراتبها . وكل ذلك بفضل النظام السائد في ذلك الوقت وبراعة الدعاة . ودعم الدولة للمؤسسة المذهبية التي كانت تقوم على قواعد من العلم . والفلسفة . ولكن يبدو أن كل هذا قد حرّك الأيدي الغريبة التي كانت تضمر الحقد والبغضاء . فعملت على ضرب الدعوة في الصميم . وتسرب إلى أرجائها بعض المنتسبين الغرباء الذين تدربوا خارج مصر . فجاءوا وبأيديهم معاول الهدم . وكان أن أعلنوا عن « مذهبهم الجديد » القائل بألوهية الحاكم بأمر الله واعتباره . الأول . والآخر . الذي لا قبله . ولا بعده . وتبع هذا الفريق العديد من الناس .

فماذا كان موقف الحاكم من هذه الدعوة الجديدة ؟

يذكر التاريخ :

أنه أنبهم ونهاهم ، وهددهم ، وأمر بقتل البعض منهم ، ولكنهم لم يرتدعوا ، فأحضر إليهم دعاة من مصر ، ومن المشرق . فقاموا بنصحهم وردعهم ، ولكنهم ظلوا على غيهم ينفثون سموم الإلحاد والكفر ، ويقولون بالحاكم أقوالاً لم يسمعها أحد من آبائه وأجداده من قبل .

هذه الفئة من الناس هم فرقة « الغلاة » وهذه الجماعة لا تمت إلى « الموحّدين » بصلة .

إنني هنا ، وفي هذا الكتاب لا أتحامل على أحد ، ولا أتهجم على الأديان ، وليس من مبدأي التعرض لمشاكل المذاهب . كما أني من أعداء التعصب الذميم . وفي الوقت ذاته ليعلم القارىء الكريم بأني لا أتزلف إلى أحد . وكل ما أرمي إليه هو قول الحقيقة ولا شيء غيرها .

إنّ الفرقة التي نشأت في عهد الحاكم بأمر الله ، ونادت بألوهيته ، لم تعش طويلاً . فالمعلومات التي لديّ تفيد بأنها أبيدت . وانتهى أمرها . أمّا الفرقة « الدرزية » الموحدة الموجودة الآن . والتي قرأنا بعض كتبها . وعرفنا العديد من

رجالاتها . وشيوخها ، وفيهم علماء وأدباء . ورجال وطنية لهم جولات ، وخدمات عربية . وإسلامية . فهذه الفرقة أجلّها عن مثل ما يرميها به البعض من أقوال لا تنطبق على الواقع . كيف لا ومذهبها الديني يحارب الانحراف والغلو . والشرك . والتطرف العقائدي بأجلى أشكاله ، وأوسع معانيه ... فهم لا يخرجون عن حدود الإسلام . وما جاء في رسائل « إخوان الصفا » . والرسالة « الجامعة » التي نبهت إلى التمسك بالإسلام . والقرآن بشكل عقلي . وعلمي ، ومنطقي .

إن هذه الفرقة قررت : إن الله هو الواحد . الأحد . الفرد ، الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفؤاً أحد ... فهو المنزه عن الأسماء . والصفات . . . لا يتجانس . ولا يحد ، ولا يتشاكل . ولا تبصره الأبصار .

ثم قالوا :

بأن الحاكم بأمر الله هو إمام وابن الإمام العزيز بالله . وكل هذا قرأناه في كتاب « أهل الموحدين الدروز » لمؤلفه « أمين طليع » وهذا الكتاب قرّظه مشائخ العقل . وأقروا ما جاء فيه ، وباركوا عمل مؤلفه . ففي الصفحات ٦٤ و ٦٥ قال ما نصّه الحرفي :

« كان بعضهم يخاطبونه بسيدنا ، ومولانا ، فمنعهم من ذلك ، على أن يكتفوا بلقب أمير المؤمنين ، وأباح دم كل من خالف ذلك » . ومن أوامره :

أن لا يقبل أحد له الأرض ، ولا يقبل ركابه ، ولا يده عند السلام عليه في المواكب ، وأن لا يزاد على قولهم :

« السلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله وبركاته . . . ولم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى : اللهم صلّ على محمد المصطفى ، وسلّم على أمير المؤمنين علي المرتضى ، اللهم ، وسلّم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين . . . اللهم واجعل أفضل سلامك على عبدك ، وخليفتك » .

وجاء في كتاب « مذهب الموحدين الدروز » صفحة ١٥٠ ما يلي :

« حكم ٢٥ عاماً من سنة ٣٨٦ هـ حتى سنة ٤١١ هـ . فلم نجد في أثنائها لا في سيرته ، ولا في أقواله انحرافاً عن الإسلام ، وليس لدينا ما هو منسوب إليه ، أو صادر عنه ما يدل على دعوى الألوهية ، أو يخالف شروط الخلافة ، وأحكام الإسلام » .

ومهما يكن من أمر فإن مذهب الدروز القائم الآن هو

مذهب توحيدي قائم على العقل . وعلى دعائم من الفلسفة . فقد قال بالتوحيد . وسمّى دعوته دعوة التوحيد ورفض كل شرك وقال : بأن الله هو أحد فرد صمد . ولكن هناك قاعدة « التأويل » واعتقد أن هذا المبدأ ظلّ بحاجة إلى توضيح وخاصة بالنسبة للعامة . من جهة ثانية فإن الكتب التي وقعت في أيدي الغرباء عن المذهب أسيء فهمها . وأدخل عليها . وأن عباراتها . وبعض الاصطلاحات فيها لا يعرف تأويلها إلاّ أصحابها . ومن هنا انطلقت الأقوال . وراج سوق الاتهامات .

❦

إن دعاة هذا المذهب . أو المؤسسين لقواعده في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله هم :

١ — « حمزة بن علي بن أحمد الزوزني » :

ولد سنة ٣٧٥ هـ . وتخرج من جامعة « جنديسابور » بفارس . كان عالماً كبيراً فاق أقرانه في العلوم الدينية . والفلسفة الإلهية . . . التحق « بدار الحكمة » في القاهرة وتقرب من الخليفة الحاكم بأمر الله . وحظي عنده بمكانة مرموقة . لقبه « العقل » و « هادي المستجيبين » .

٢ ـ « إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي » :

كان عالماً ، وقائداً ، وشاعراً . . . قاد جيوش الحاكم بأمر الله في كثير من الميادين . . . كان اليد اليمنى لحمزة . . . كتب كثيراً من الرسائل . . . لقبه : « النفس الكليّة » و « الشيخ المجتبى » و « هرمس الهرامسة » و « أخنوخ الزمان » و « الحجة الصفية الرضيّة » .

٣ ـ « محمد بن وهب القرشي » :

ينتسب « لآل البيت » الكريم . كان عالماً صادقاً . . . لقبه « الكلمة » أي كلمة الله . و « الشيخ المرتضى » و « سفير القدرة » و « فخر الموحدين » و « عماد المستجيبين » و « الكلمة العليا » .

٤ ـ « سلامة بن عبد الوهاب السامري » :

لقب « بالسابق » تكريماً ، وإجلالاً . وسمي « الشيخ المصطفى » و « نظام المستجيبين » و « عز الموحدين » و « الجناح الأيمن » .

٥ ـ « علي بن أحمد السموقي » :

كان غزيراً ، ومجتهداً ، ودؤوباً على الدرس والعمل ، كتب أكثر رسائل التوحيد ، ظلّ يكافح حتّى سنة ٤٣٤هـ.

ثم أمر بعد ذلك بإقفال أبواب الدعوة تقية . وتفادياً من الجور . والظلم . والتشريد . والتنكيل . والقتل الجماعي الذي نزل بالموحدين في مصر . والشام . وخاصة بعد أن حكم الشام « صالح بن مرداس الكندي » .

لقبه : « الشيخ المجتبي بهاء الدين » و « لسان المؤمنين » و « سند الموحدين » و « الناصح لكافة الخلق أجمعين » .

لعل هذا كافياً عن الموضوع الذي تطرقنا إليه في كتابنا هذا . والذي أوردنا فيه الحقائق المجردة . . . فنحن في عصر أحوج ما نكون إلى التآلف . ونبذ الأحقاد . والرواسب . وإبعاد التعصب الديني الذميم الذي هو أعدى أعداء الإنسانية .

النهاية العجيبة

في الواقع أن نهاية الحاكم بأمر الله ، واختفاؤه بهذا الشكل العجيب ، أمر يستدعي التساؤل ، والاهتمام ، فالحاكم بأمر الله بدأ لغزاً صعب الحل ، وانتهى لغزاً ، لم يتمكن أحد من حل رموزه ، وهكذا سيبقى لغز الدهر المقفل ، أما أقوال المؤرخين ، وأما الروايات ، والاساطير فجميعها لا تنير السبيل ، ولا تقوم على الدليل الدامغ .

إن جريمة الاغتيال دبرت من قبل رؤوس كبيرة في الدولة ، وربما كانوا ممن نجوا من سيفه ، أو ممن نال أحد أقرباءهم الأذى ، أو لعل بعضهم ممن كانوا يحملون له الحقد المذهبي ، ويسبونه حتى في المساجد سراً ، وقد يكونوا من « القبط اليعاقبة » الذين كانوا يخوضون حرباً ضد « القبط الملكيين » أخوال الحاكم الذين كانوا مشمولين بعطفه ، ورعايته وليس هناك أغرب من اتهام شقيقة الحاكم الأميرة « ست الملك » بأنها كانت وراء الجريمة . ومما ذكره التاريخ :

بأن « ست الملك » استعانت بأحد قواد الجيش واسمه « حسين بن دوّاس » وهو من شيوخ « كتامة » فذهبت إليه متنكرة ليلاً ، فاستحلفته . واستوثقت منه . وقالت له :

أنت تعلم ما يقصده أخي منك . . . فهو يريد قتلك . . . وفوق هذا فلقد ادعى الألوهية . وهتك ناموس الشريعة . وناموس آبائه . وأجداده . . . وزاد جنونه . . . ثم أن « ست الملك » وعدته بأن تجعله القائد الأعلى للجيش . كما وعد بالأموال . والإقطاعات . فقبل « ابن دوّاس » . وباشر الجريمة بأن أرسل عبدين من عبيده لقتله . وقد تمّ قتل الحاكم بسهولة بسبب ولعه بالخروج إلى جبل « المقطّم » . وكان له قوم ينتظرونه كل ليلة على باب القصر . فإذا ركب ركبوا معه ، وعندما يصل إلى الجبل يرد جميع من معه ما عدا الركابي أي حارسه الخاص . فتعمدت « ست الملك » مراقبة أخيها من قصرها الذي كان أمام قصره . فلما خرج أرسلت وراءه العبدين بعد أن زودتهما بخنجرين حادين . وهكذا لحقاه إلى الجبل . وتمكنا من الإجهاز عليه . كما قتلوا الركابي . ثم حملا جثة الحاكم إلى « ابن دوّاس » فحمله إلى « ست الملك » حيث أخفته . وزاد التاريخ على هذه القصة :

بأن « ست الملك » عمدت فيما بعد إلى قتل « ابن دوّاس » والعبدين ، وذلك أخفاءً للجريمة . وهناك رواية أخرى تقول :

إن الحاكم بأمر الله ليلة خروجه إلى المقطم ، ومعه الركابي حارسه الخاص فقط اعترضه سبعة من البدو . والتمسوا منه الصلة بجفاء ، وغلظة ، فأجابهم : بأنه لا يحمل مالاً يدفعه لهم ، ولكنه يرسلهم إلى متولي بيت المال « ابن بدوس » ليدفع لهم خمسة آلاف درهم ، فقالوا : إنهم لا يمضون لأنه لا يدفع لهم شيئاً ، واشتد الجدل بينهم ، وبينه ، فطلبوا إليه أن يرسل معهم الركابي لينجز لهم ما وعد من عطاء ، وسار الركابي مع أربعة منهم صوب المدينة وتخلّف الثلاثة الباقون ، ثم أن الركابي عاد بعد أن أدّى مهمته ، فلم يجد سيده في المكان الذي تركه فيه ، وطال بحثه دون جدوى حتّى لقيه أحد الرجال فسأله ، وذكر له صفة الحاكم ، وصفة حماره ، فأخبره أنه رأى هذا الحمار في طريقه معرقباً ، وسار معه إلى الموضع .

وفي صباح اليوم التالي سارت الأميرة « ست الملك » وجميع الأمراء ، والقواد إلى الجبل يتتبعون أثر الحاكم حتّى وصلوا إلى « دير القصير » فبحثوا في الدير ، وجميع المواضع الّتي كان يرتادها ، فلم يقفوا له على أثر ، ثم عثروا بعد ذلك على ثيابه ، وفيها آثار الطعان ، والدماء ، ولكنهم لم يجدوا

جثته . فاستدلوا من ذلك على أن البدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم هم الذين قتلوه.وأخفوا أثره في الجبل . وذكر مؤرخ معاصر :

بأن الحاكم لما سار في طريقه إلى المقطّم . وبعث أحد الركابيين مع نفر من « بني قرّة » الذين اعترضوا طريقه . صرف الركابي الآخر عند قبر « الفقاعي » في وسط القرافة الكبرى . ولمّا لم يعد الحاكم كعادته في صباح اليوم التالي . خرج القضاة ، والأشراف . والقواد إلى الجبل ، فبحثوا عن الحاكم حتى آخر النهار ، فلم يعثروا له على أثر . وكرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة أيام دون جدوى . وفي اليوم الرابع خرج «مظفّر » صاحب المظلة و « نسيم » صاحب الستر ، و « ابن مسكين » صاحب الرمح ، وعدة من زعماء الجند . والقضاة ورجال الدولة، وتوغلوا في شعب المقطّم حتى بلغوا « دير القصير » على مقربة من « حلوان » وعكفوا على البحث ، والتنقيب حتى عثروا على حمار الحاكم الأشهب . وقد قطعت ساقاه الأماميتان . وعليه سرجه . ولجامه . فتتبعوا الأثر ، فإذا أثر راجل خلف أثر الحمار ، وأثر راجل أمامه . فتتبعوا ذلك الأثر أيضاً حتى وصلوا إلى البركة الواقعة شرقي « حلوان » فنزلها البعض . وعثروا فيها بثياب الحاكم . وهي

سبع جباب مزررة لم تحل أزرارها . وفيها أثر الطعان ، فعندئذ أيقن الناس بقتله .

وهناك رواية أخرى عن مقتل الحاكم بأمر الله ، ونصها هو أنه :

قبض على رجل من « بني حسين » فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد ، وقال ان السبب هو غيرته على الإسلام .

ومهما يكن من أمر فإن « المسبحي » كان مؤرخاً كبيراً . ومن عظماء الدولة . ومن معاصري الحاكم نفسه . والمرجح أنه وقف بنفسه على كثير من التدابير التي اتخذت عقب اختفاء الحاكم ، وسمع من المصادر الوثيقة كثيراً من الأحاديث التي ذاعت حول مصرعه . وليس ثمة شك في روايته للواقعة التي ينقلها إلينا عن ذلك الرجل المقبوض عليه . ولكن هل قال ذلك الرجل حقاً ؟ وهل كان حقيقة من قتلة الحاكم بأمر الله ؟ هذا هو موضع الشك . ومن الصعب أن نعتقد أن رجلاً ، أو رجالاً من العامة يستطيعون أن يدبروا . وأن ينفذوا وحدهم مثل هذه الجريمة المروعة ، في مثل هذا الخفاء ، والأحكام ، اللهم إلا إذا كانوا مأمورين يعملون لحساب الرؤوس المدبرة

ذات الحول . والقوة . والظاهر أن الرجل المذكور كان من الفدائية . أو من المعتوهين . أو أنه أراد أن يجعل من نفسه بطلاً .

والمهم في رواية « المسبحي » هو أنها تبرىء « ست الملك » من تبعة الجريمة ، وهي تبرئة يؤيدها المؤرخ المقريزي ، وعلى كل حال فإنها تتفق في أن الحاكم بأمر الله ذهب ضحية الجريمة . والمؤامرة . وأنه توفي قتيلاً ، وأن جثته اختفت .

وهناك رواية أخرى تنفي عن « ست الملك » قتلها لأخيها . وترجح قتله لأسباب شخصية على يد « ابن دوّاس » . فقد كان الحاكم يريد قتله ، فهرب « ابن دوّاس » ولم يأتِ إلى القصر . فدبر « ابن دوّاس » قتل الحاكم مع جماعة من أهل البوادي بمصر . وبعد ذلك ندم على ما فعل ، واحتمى في بيته. ولكن « ست الملك » تحايلت عليه ، وجاءت به إلى القصر ، وهناك قبضت عليه ، وأرسلت من فتش منزله فوجدت في بعض صناديقه « السكين » التي كان يحملها الحاكم في كمه ، فتحقق بذلك أن « ابن دوّاس » هو القاتل . . . وهنا يعطي المؤرخ الدليل على صدق روايته بقوله : ان « ابن دوّاس » كان من شيوخ « كتامة » وأنه أخذ مكان « ابن عمّار »

وسيطر على المغاربة . ومن المعلوم أن الحاكم عامل المغاربة معاملة قاسية أيام ثورة «أبو ركوة» .

وهناك روايات أخرى عن مقتل الحاكم ، وجميعها من نسج الخيال كقولهم :

إن القتلة من قبيلة «المصامدة» المغربية ، وأنهم اقترفوا الجريمة بدافع من «الأمويين» بالأندلس . وجاء من يقول أيضاً أنهم من عرب «بني قرّة» أو من «السويديين» المتسبين إلى زعامة «سويد بن الحارث» .

والذي يشغل البال حقاً هو ما كتبه بعض المؤرخين عن مقتل الحاكم بأمر الله ، واتهامهم شقيقته «ست الملك» بأنها كانت وراء المؤامرة ... ولا بد من التساؤل ، ونحن في معرض الرد على هؤلاء .

لماذا تقتل «ست الملك» أخاها الحاكم ، وهي الأميرة القوية النابهة التي كانت ساهرة يقظة على مصير الدولة ، وعلى توطيد دعائمها ، وتوجيه شؤونها بفطنة ، وبراعة . أجل ... لماذا تقدم على مثل هذه الجريمة ، وهي تعيش آمنة مطمئنة برغد ، وهناء ، في القصر الغربي الذي بناه والدها العزيز بالله ، تخدمها الآلاف من الجواري ، ويغمرها المال ،

والجواهر والرياش . والتحف . فضلاً عن الآلاف من الجند الذين كانت مهمتهم حراسة قصرها . وخدمتها وتوفير الأمن لها .

وقد لمسنا في مواقف كثيرة بأنها كانت موضع عطف الحاكم . وأنها كانت تبادله العطف فتسهر على سلامته . وتمده بالآراء الحصيفة . وقد وصفها بعض المؤرخين الثقة بأنها كانت من أعقل الناس.وأحزمهن.وإني لم أعثر على رواية تشين هذه الأميرة الجريئة . بل نرى كافة المصادر تجمع على مدحها . والإشادة بحزمها . وعقلها . وكياستها . وإني أضيف إلى ما ذكره « المقريزي » و « المسبحي » وغيرهما من المؤرخين الثقة : بأنه من المشكوك فيه جداً أن تنحدر هذه الأميرة الفطنة إلى مثل هذاالمسلك المشين .

ومن جهة أخرى فإني لا أدري ماذا أقول ؟ وأنا أمام رواية أخرى تتراءى فيها السخافة . والبعد عن الحقيقة . فقد ذكر بعضهم أنه : عند البحث عن الحاكم بأمر الله لم يجدوا إلاّ حماره الأشهب مقطوع القوائم . وعليه سرجه . ولجامه . كما وجدت « جبّات » الحاكم وعددها سبعة . وهي من الصوف . وكانت مزررة بخالها . ولكن فيها أثر السكاكين .

كلنا يعلم أن مصر بلاد «حارة» وأن أيام البرد فيها معدودة في فصل الشتاء فكيف كان الحاكم بأمر الله يطيق لبس سبع «جبّات» فوق بعضها البعض . وكيف كان يتحملها ؟ أعتقد أن كل هذه المزاعم لا تنطبق على الواقع وأنها أشبه ما تكون بقصص «ألف ليلة وليلة» .

في الواقع :

إن مقتل الخليفة الحاكم بأمر الله يعتبر مأساة من مآسي التاريخ ، وأنه اللغز الذي لم يهتد أحد حتّى الآن إلى معرفة ما بداخله . ان رأيي في الموضوع لا يخرج عن كونه رأياً يستند إلى الوقائع التاريخية . ومجريات الأمور . فمقتل الحاكم بأمر الله لم يتم إلاّ على أيدي الفئة التي غالت به . ووضعته في مصاف الآلهة ، وكأني بها أرادت أن تدعم أقوالها ،وادعاءاتها المذهبية بأن الحاكم اختفى في مكان من الأرض . وأنه سيعود يوماً ما ليملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً . وظلماً ، ولهذا فإن هذه الفرقة أخفت معالم الجثة ، وكتمت كل ما يتعلق بعملية الإخفاء ، وكأني بها أرادت أن تتبع خطوات القائلين ، والمنتظرين عودة «الإمام المنتظر» أو المهدي .

ولاية العهد

« ولاية العهد » في الدولة الفاطمية منصب خطير يخضع لقوانين . وأحكام . وأصول كان الخلفاء الفاطميون يحرصون على تطبيقها بمنتهى الدقة . ويلتزمون بسننها . وموادها حتى يكون مستقبل الخلافة مضموناً . وغير مفتوحاً للطامعين ، والراغبين . فقد مرّ معنا أن بعض الخلفاء كانوا يضطرون في مناسبات عديدة ، وعندما تقتضي الظروف إلى إقامة أوصياء على أطفالهم المرشحين للخلافة . وكان البعض من هؤلاء . وفي ظروف طارئة من الغرباء عن الأسرة الفاطمية ، وحين نرى الحاكم بأمر الله يختار قريبه « عبد الرحيم بن الياس بن أحمد علي المهدي بالله » وهو من نسل « عبيد الله المهدي » أول خليفة فاطمي في المغرب ليكون « ولياً للعهد » فمعناه أنه عهد إليه القيام بالمهمة وكالةً لبينما يصل « ولي عهده » الأصيل « الظاهر لاعزاز دين الله » إلى سن الرشد . وليس أدل على ذلك من إعطائه لقب « ولي عهد المسلمين » والاحتفاظ

لابنه الظاهر بلقب « ولي عهد المؤمنين » فهذا هو « الاستقرار » في الدعوة الفاطمية . بينما الأول هو « الاستيداع » .

إن كل هذا خفي على المؤرخين في ذلك العصر ، فأفردوا له الصفحات ونسجوا حوله الروايات . والأساطير .

إن التدبير الذي قام به الحاكم بأمر الله ليس غريباً على كل من درس أصول وقواعد « الإمامة » لدى الفاطميين ، وأن له سوابق كثيرة وقعت فيما قبل ، وما بعد ، والحقيقة فإن ما جاء في تعليقات المؤرخين لا ينطبق على الواقع ، ولا أراه يستحق الرد أو الاهتمام . .

ذكر التاريخ :

إن الحاكم بأمر الله منح « عبد الرحيم » كافة الصلاحيات التي تمنح لولي العهد إلاّ « المظلة » ، وبعد أن أخذ له البيعة من جميع رجال الدولة . وألبسه الثياب الخاصة قرأ سجل تعيينه على منابر المساجد في عموم أنحاء الدولة . وأمر الناس بالسلام عليه ، وأن يقولوا له : « السلام على ابن عم أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين » وبالفعل أشرك الحاكم « عبد الرحيم » في أمور الدولة بما فيها الإدارة ، والنظر في المظالم ، والنيابة عنه في الخطبة والصلاة في الأعياد ، وأخيراً

رأى الحاكم بأن تعيين « عبد الرحيم » على ولاية الشام هو أضمن لمصلحة الدولة .

وبعد وفاة الحاكم ، كان «الظاهر لاعزاز دين الله » قد بلغ السابعة عشرة سنة ، فخرجت « ست الملك » ودعت وزراء الدولة ، وقوادها ، وقضاتها . وساعدها في ذلك « عمّار بن محمد » فبايعوا « الظاهر » في الخلافة . كما أعلنوا الحداد على الحاكم في جميع أنحاء الدولة . ومن جهة ثانية أرسلت إلى الشام من استدعى « عبد الرحيم » ولكنه رفض الطلب . وأراد الاستئثار بالشام لنفسه ،مما جعل« ست الملك » تعمد إلى إرسال أحد القواد ، فقبض على « عبد الرحيم » وحمله إلى مصر . وأدخل « الغرما » وهي مدينة على ساحل البحر . ومنها حمل إلى « تنيس » حيث اعتقل فيها مدة ، وعندما أعلن توبته وندمه جيء به مكرماً إلى القاهرة . وأنزل في القصر ، وظلّ في القاهرة محوطاً بعطف . ورعاية الخليفة الظاهر حتى أدركته الوفاة ، وقيل أنه مات مسموماً . أما ولده « أحمد » فقد ذهب إلى الشام ، وأقام فيها .

حريق القاهرة

ذكرنا أن الحاكم بأمر الله كان مشغوفاً بالطواف ، يركب في الليل ، والنهار ويقصد غالباً إلى « المقطّم » ، وإلى « حلوان » حيث أنشأ له منزلاً ريفياً منفرداً يخلو فيه إلى نفسه هائماً في عوالمه . وتصوراته ، وكان لديه مرصداً يرصد فيه النجوم ، ويستطلعها ، وربما قصد إلى بعض الحدائق . والمواقع المنعزلة ، ثم يخرج إلى الجبل ، ويجوب الفضاء الواسع .

وكان يخرج دونما موكب ، أو زينة ، وبلا حراسة ، ويرتدي ثياباً بسيطة ، وهو يحادث الناس في الطريق ، ويستمع إلى ظلامات المتظلمين ، ويفصل فيها لوقته ، أو يحيلها إلى جهة الاختصاص ، وكانت تنهال عليه الرقاع ، والعرائض ، فيحملها معه ، حيث يبت فيها بعد ساعات قلائل . . . ما هذا الحاكم العادل ؟ وكم نحن بحاجة إلى أمثاله من الحكام الذين جاءوا إلى هذه الدنيا وليس لديهم إلاّ هدف واحد يقوم على خدمة الإنسانية ، وإسعاد بني البشر .

أليس من الظلم ، أن يتهم إنسان مثل هذا بأنه فكّر في يوم من الأيام بحرق مدينة « القاهرة » لماذا ؟ فالحاكم في كل أدوار حياته لم يتقمص شخصية « نيرون » وقد عرفه الناس بأنه كان يرتدي ثياب الفيلسوف ، المتصوف ، القديس . . . كيف يحرق الحاكم القاهرة مدينة جده المعز لدين الله ، والتي تعب الفاطميون ، وكرسوا حياتهم في سبيل عمرانها وازدهارها؟ أليس في القاهرة قبور آباءه ، وأجداده ، أليس في القاهرة الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، ودار الحكمة ، ودار العلم ؟

ما أقسى التاريخ في حكمه . . . وما أعنفه حينما يتجرد عن قواعد الصدق والأمانة ، وينحدر إلى مهاوي التعصب والجهالة .

واتهموا الحاكم بحرق كنائس النصارى ، وتقرير إبادتهم ، ولا أدري كيف نصدق ذلك وأمامنا « عهده » الذي أعطاه للنصارى في إبان حكمه، وها نحن نبسطه الآن :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين .

هذا كتاب من عبد الله ووليه ، المنصور أبي علي الحاكم

بأمر الله ، أمير المؤمنين ، ابن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين .
إلى جماعة النصارى بمصر .

عندما أنهوا إليه الخوف الذي لحقهم ، والجزع الذي هالهم فأقلقهم ، واستذراءهم بظل الدولة ، وتحرّقهم بحضور الحضرة ، بما رآه ،وأمر به ، من تكميل النعمة عليه ، بتوخيه لهم ذمة الإسلام ، وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتضفو عليهم ملابس السكون ، والدعة ، وإجابتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم ، والاعقاب .

فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام الله عليهم .

هذا على نفوسكم ، ودمائكم ، وأولادكم ، وأموالكم ، وأحوالكم ، وأملاككم ، وما تحويه أيديكم أماناً صريحاً ثابتاً ، وعقداً صحيحاً باقياً ، فثقوا به ، واسكنوا إليه ، وتحققوا أن لكم جميع رأي أمير المؤمنين ، وعاطفته ، ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم عليكم بسوء

أحد ، ولا تتطاول إليكم بمضرة يدٌ إلاّ كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه . وعظيم افكاره مضيقاً فيه من ذراعه . والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته، ومد له وسيلة الثواء في كنف دولته . وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانه لكم . وعهده الذي يشرفه طرفكم . وكفى بالله شهيداً . وليقرر في أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم ، إن شاء الله .

كتب في شعبان إحدى عشرة وأربعمائة .

واتهموه بالإلحاد . وبادعاء الألوهية . في وقت يشهد التاريخ بأنه كان يبني الجوامع ويزينها . ويصلي بالناس . ويعتكف هو في الأمكنة الخالية للعبادة . والتأمل . والانقطاع . وإننا لا نجد رداً نوجهه لهؤلاء إلاّ ما أورده الفيلسوف « الكرماني » المعروف « بحجة العراقين » في رسالته « الواعظة » التي وضعها تحت إشراف الحاكم بأمر الله في القاهرة « المعزية ».

« وأما قول أصحابك : إن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين سلام الله عليه فقول كفر . تكاد السموات يتفطرن منه . وتنشق الأرض . وتخرّ الجبال . هذا ان دعوا للإله المعبود غيراً . . . فيا للجسارة على الله حين جعلوا له تعالى شريكاً . . .

ما أعظمها ويا لجرأة على الله تعالى حين جعلوا المعبود غيره تعالى . . . ما أفظعها . ولقد قالوا عظيماً وافتروا إثماً مبيناً ، وأن ذلك إلاّ كفر محض ، فما أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ عبد لله خاضع ، وله طائع ، يسجد لوجهه الكريم . ويعظمه غاية التعظيم ، وباسمه يستفتح ، وعليه في أموره يتوكل ، وأمره إليه يفوض ، والله تعالى قد فضّله على خلقه ، وجعله من جهة رسوله محمد صلى الله عليه خليفة له في أرضه ، ووسيلة لعباده إلى جنته ، وأوجب طاعته على عباده ، وهو سلام الله عليه ، يتبرأ إلى الله تعالى ممن يعتقد ذلك فيه .

وكيف يكون معبوداً ، وهو جسم ذو أبعاض مؤلفة ، ونفس ذات قوى مكلفة ، يأكل ، ويمشي ، وينام ، ويستيقظ وتنطوي عليه الأحوال المتضادة ، من رضا ، وسخط ، وغم ومسرة ، وسقم ، وصحة كغيره من البشر .

وهو سلام الله عليه ينفي ما تنسبه أنت ، وأصحابك إليه عن نفسه ، كلاّ ان المعبود ليس إلاّ الإله الذي له يسجد أمير المؤمنين سلام الله عليه ، ويوحده ، ويسبحه ، وعن النعوت ، والصفات يقدسه ، وله سجد من النبيين ، والأوصياء ، والأئمة المتقين ، وتابعيهم ، وإياه يعبد ، وله يسجد من يخرج إلى الكون منهم ، ما دام عقل ، وفاض عدل ، الذي خلق

السموات بأفلاكها . والنجوم بأنوارها . والأركان بطبائعها . والمواليد بأجناسها :

«لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الذِي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ» .



خاتمة المطاف

وأخيراً فقد بسطنا ما فيه الكفاية عن هذا الخليفة العظيم ، في وقت لم تكن الكتابة عنه بالأمر اليسير ، خاصة بعدما كتبه أعداؤه عنه من قصص خيالية ، وأساطير مذهلة ضمنوها التهجم الظاهر ، والتعصب الذميم ، والتشويه للوقائع مما لم يعرف له مثيل في أي تاريخ من تواريخ العالم .

إن الصورة الواضحة للخليفة الفاطمي السادس الحاكم بأمر الله ، والتي علقت بأذهان الناس كما عرضها بعض المؤرخين ليست هي صورة الحاكم الحقيقية الجديرة بالتأمل والتعجب ، والتي تظهره كشخصية متميزة ، صوفية ، مثالية ، نادرة لا تهتم إلاّ بالواجب والعمل لإسعاد الشعب الذي يحكمه ، والإبقاء على سيادة القانون ، والأخلاق ، والدين .

من هنا فإن الحاكم بأمر الله لا يزال يحظى بتقدير ، واحترام الشعب المصري نظراً لصفاته العالية القوية ، فلقد

قدم بعض القواد أنفسهم قرابين في سبيله . كما أن شيخ فلاسفة الفاطميين في عصر الحاكم « الكرماني » قال بأنه : إمام مؤمن بالله ، ورسوله وقد ذكرت صفاته في كتب مقدسة ضاع أثرها . وكان لمؤرخ عصره الأمير « المسبحي » الفضل في إظهار الحقائق عنه . وتبعه المؤرخ الثقة « المقريزي » .

وأخيراً نقول : كم يحلو الوصول إلى الحقيقة . والاستظلال بظلها . والانتهال من ينبوعها .



الاعياد والمواكب الفاطمية
في عهد الحاكم بأمر الله

كان عصر الدولة الفاطمية بمصر من أزهر العصور، يجتمع فيه كثير من أسباب القوة، والعظمة، والبهاء. وكانت هذه الدولة الشامخة التي مثلت الزعامة، والخلافة في الإسلام، في ظروف سياسية، ودينية خاصة، أقوى الدول الإسلامية حرصاً على أن تطبع المجتمع بطابعها، وأن تصوغ روح الشعب، وعقليته، وتفكيره، وحياته العامة، والخاصة، وفقاً لمناهجها ورسومها، فنرى الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي تتخذ صوراً ومظاهر خاصة، وتتقلب بين ألوان من البذخ، والترف، والبهاء، قل أن نجدها في عصر آخر من عصور مصر الإسلامية. كما نراها أحياناً تمتاز بألوان من التطرف، والإغراق. وقد كانت هذه الحياة مرآة للدولة الفاطمية تشع بخواص قوتها، وفخامتها، وبهائها، وروحي مناهجها السياسية، والدينية، والعقلية.

وكانت أعياد الدولة ، ومواسمها الباهرة . ولياليها الساطعة مثار البهجة . والمرح العام،فالأعياد والمواسم تتشح بالفخامة والبهاء . والرسوم تبدو بأثواب من الرونق ، والجمال.

وقد وصف لنا المؤرخون هذه الأعياد . والحفلات . والمواكب ، ووضعوا أمامنا مشاهد عنها ، ومن المؤكد أن عصر الحاكم بأمر الله رغم اضطرابه لم يخل من هذه المظاهر . والمشاهد الفخمة ، ولا سيما قبل أن تصدر مراسيم الحاكم بالتقليل من المظاهر الباذخة .

أجل . . . لقد كانت المواكب . والحفلات الفاطمية تبلغ ذروة البهاء ، والبذخ ، أيام الأعياد ، والمواسم الرسمية . وكانت الأعياد الرسمية في عهد الدولةالفاطميةعديدة منوعة وهي :

رأس السنة الهجرية ، وليلة المولد النبوي الكريم ، وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وغرة رمضان ، ويوم الفطر ، ويوم النحر (عيد الأضحى) ، أما الأعياد الخاصة بالفاطميين فهي :

مولد علي بن أبي طالب ، ومولد الحسن ، والحسين ، وفاطمة . ويوم عاشوراء أو عاشر محرم . وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين ابن علي في كربلاء . أما الأعياد المصرية الاجتماعية فهي :

عيد فتح الخليج . ويوم النيروز ، وعيد الشهيد . وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد في فيض من الروعة ، والبهاء ، والبذخ . فينتظم الركب « الخلافي » برسومه . ومظاهره الفخمة ، وتقام المآدب ، والحفلات الشائقة ، ويكثر البذل ، والعطاء ، ويستقبل الشعب هذه الأيام المشهودة فرحاً ، وتغمره البهجة ، والسعة ، والمرح .

ولكن الاحتفال بالعيدين — الفطر ، والأضحى — من أعظم مشاهد الخلافة الفاطمية . وكان موكب العيد من أفخم مواكبها ، وأروعها . ففي ليلة عيد الفطر ، كان ينظم بالإيوان الكبير الذي يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم يبلغ طوله نحو ثلثمائة ذراع ، في عرض سبعة أذرع ، وتنثر عليه صنوف الحلوى ، والفطائر الشهية مما أعد في دار الفطرة الخلافية ، فإذا انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر ، والإيوان على مصاريعها ، وهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط ، وتخاطفوا محتوياته بمشهد من الخليفة ، وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة في موكبه إلى الصلاة ، ويكون خروجه من « باب العيد » إلى المصلى .

ونكتفي بما قاله مؤرخ العصر « المسبحي » في وصف هذا العيد :

وفي يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد . وبين يديه الجنائب . والقباب الديباج بالحلى . والعسكر في زيه من الأتراك . والديلم . والعزيزية ، والإخشيدية ، والكافورية ، وأهل العراق . بالديباج المثقل . والسيوف . ومناطق الذهب . وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر . والسروج بالعنبر . وبين يديه الفيلة ، وعليها الرجالة بالسلاح . وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر . وبيده قضيب جده عليه السلام . فإذا عاد الخليفة من الصلاة كان ثمة سماط آخر أبهى . وأروع ، فيجلس الخليفة في مجلسه . وأمامه مائدة من فضة . وعليها أواني من الذهب أيضاً غاصة بأفخم الألوان . وأشهاها . وقبالة المائدة سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو . وقد نثرت عليه الأزهار . والرياحين . وصفت على جانبيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور . والحلوى الشهية ، وجلس إليه رجال الدولة ، والعظماء . والأكابر من كل ضرب ، فيأكل من شاء وعند الظهر ينفض المجلس . وينصرف الناس .

وأما عيد الأضحى . فقد كان يحتفل به بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحو المتبع في صلاة عيد الفطر . ثم يخص بسماط حافل يقام في أول يوم منه . بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى .

ويمتاز خاصة باشتراك الخليفة نفسه في إجراءات النحر . وكان قيام الخليفة بهذا العمل من أروع المظاهر . والرسوم التي جرت عليها الخلافة الفاطمية في الأعياد العامة ، فلنتصور أمير المؤمنين متشحاً بثوب أحمر قاني يسير في موكبه ماشياً إلى دار النحر — وقد كانت تقوم في ركن خارجي من القصر — وبين يديه الوزير وأكابر الدولة . ويكون قد أعد في المذبح برسم التضحية ، واحد وثلاثون فصيلاً وناقة أمام مصطبة يعلوها الخليفة ، وحاشيته ، وقد فرشت حافتها بأغطية حمراء يتقى بها الدم . وحمل الجزارون كل بيده إناء مبسوطاً يتلقى به دم الضحية ، ثم تقدم رؤوس الأضاحي إلى الخليفة واحدة بعد أخرى فيدنو منها ، وبيده حربة يمسك بها من الرأس ؛ ويمسك القاضي بأصل سنانها ، ويجعله في عنق الدابة ، فيطعنها به الخليفة ، وتجر من بين يديه ، وهكذا حتى يأتي عليهـا جميعاً . وكلما نحر الخليفة رأساً جهر المؤذنون بالتكبير . ويقدد لحم الضحية الأولى . ويفرق قطعاً صغيرة على الأولياء والمؤمنين . وفي اليوم التالي ينظم نفس الموكب إلى المنحر . وينحر الخليفة سبعة وعشرين رأساً . وفي اليوم الثالث ينحر ثلاثة وعشرين . ويجري توزيع لحم الأضحية خلال هذه الأيام الثلاثة على أرباب الرسوم في أطباق خاصة للتبرك .

ويخص طلبة « دار الحكمة » و « دار العلم » بقسط من هذه اللحوم .

وكانت ثمة أعياد رسمية . أو قومية أخرى تقام أحياناً في فيض من البذخ . والمرح وأحياناً تفرض في إقامتها فروض معينة . وأحياناً تلغى . وذلك انها لم تكن أعياداً اسلامية .

أما بالنسبة للحفلات الدينية الرسمية . وللأيام المشهودة فقد كانت تزين فيها المدينة أعظم زينة . ويكثر الخليفة فيها من الصلة . والهبات . وكان يركب مرة أو مرتين في الاسبوع للتنزه في البساتين . والقصور الملكية في ضواحي المدينة . وفيها أيضاً تنثر الصلات . والصدقات . ولكن بعد أن جاء الحاكم تغير الحال .

ومهما يكن من أمر فهكذا كانت الخلافة الفاطمية تحتفي بأعيادها . ومواسمها . ولياليها في بذخ طائل . وهكذا كانت رسومها . ومواكبها . ومظاهرها مثال الروعة . والبهاء . أو قل شذور تذكي الخيال إلى الذروة . ويقيناً أن الفاطميين كانوا يتوخون من كل هذا تثبيت هيبتهم الدينية بما تسبغه من الخطورة . والخشوع على بعض المظاهر . والرسوم المذهبية من جهة . ومن جهة أخرى ليغمروا الشعب

بفيض من الحفلات . والمآدب ، والمواكب الباهرة ، وان يأسروه بمظاهر الكرم الوافر . وذلك لكسب ولائه ، وعرفانه . وتأييده .



السجلات الحاكمية

أصدر «الحاكم بأمر الله» سجلات عديدة . وهي قوانين أو مراسيم كانت تذاع على الشعب . وبالنظر لأهميتها التاريخية نبسط بعضها فيما يلي :

«صيغة الأمان الذي أعطي «لحسين بن جعفر الصقلي».

«بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فانك بأمير المؤمنين ظهرت . وبسقيا نعمه نبت . وأغصانها أقلتك . ودوحاتها أظلتك ، وعهدها تميمتك ،وعقدها ذخرك وغنيمتك ، وكم لآباء «أمير المؤمنين» على آبائك نعم أمثالها وفيهم عوائدها ، وبواديها . وأشكالها . فاشتروهم من التجار ، وملكوهم أزمة الاحرار ، وأعطوهم أعنة الكبار . وجعلوا أعقابهم ملوك الأقطار . واعلام الأمصار . فصاروا رؤساء بعد أن كانوا أذناباً ، وصدروا بعد أن كانوا أعقاباً ، فقادوا العساكر ، ورقوا رؤوس المنابر . وركبوا

رقاب الدهر ، وحكموا في الأموال . والدماء بنافذ الامر ، وابقى ذلك «أمير المؤمنين» ووفره . وأفاض بسجاله وادره . ولم يقتصر بك على ذلك حتى جذب بصنيعك من مطارح العبيد ، إلى مطالع الأحرار الصيد ، فعقد لك الوزارة ، والقيادة ، وجللك رداء العز ، والسيادة ، والقى إليك مقاليد الأمر ، وبسط يديك في البدو والحضر ، وأعطاك ما لم تسم بك اليه همة . وخولك ما لم يبلغ بك إليه أمنية . وفضلك على كثير من مواليه ، وعصبه ، وأدانيه . وأقاربه ، وعظم خطرك ، وقدرك ، وانفذ صيتك ، وذكرك ، تنهي ، وتأمر ، وتورد ، وتصدر . وتنفع ، وتضر ، وتسوء ، وتسر ، وصرت بشدة أمرك . ورفعة قدرك جباراً عظيماً ، وسلطاناً قوياً ، تمضي ما شئته ، ولا تناقض ، وتملك ما أردت ولا تعارض ، ولم يدر أن مثل احسانه اليك يكفر ، ومثل متجره فيك يخسر ، فبطرت عيشك . ونسيت أمسك ، وجهلت نفسك ، وخنت ولي نعمتك . وعصيت مالك ناصيتك ، فاستبدلت بشعار الطاعة . جلباب المعصية . وركبت بمركب العبودية مركب الحرية . وأوضعت ، وأوجفت قائد الضلالة ، والجهالة ، ونقضت العهد ، وحللت العقد . وخيل اليك بسوء نيتك . وسقم طويتك الغدر الذي وليت عليه . فظننت

أن « أمير المؤمنين » وبعض الظن إثم – قال عما عاهدك ، وبدا له فيما عاقدك . وحاشاه من ذلك ، وما عسى – غفر الله لك – أن تقول إذا تناقلت زلتك الألسن العادلة ، وبثت حديثك الأندية الحافلة . وما عذرك إذا قيل لك لم خرجت عن الاوطان . وتطرحت في البلدان . وخليت دارك التي فيها درجت – ومنها خرجت . وقلدت نفسك بما لا يدحضه الاعتذار ، ولا يعفيه الليل والنهار ولم يثلم لك مال ، ولا يغير لك حال ، ولم تبتذ ثوب الكرامة . ولم تسلب ظل السلامة . نعوذ بالله العظيم من نعمة تتعرى عن جلبابها ، ومرهبة تسلخ من أهابها ، ومع ذلك فتدعي أنا نبتغي لك الغوائل . وننصب لك الحبائل . ونقصد منك المقاتل ، ونشره إلى حيازة مالك . ونسارع إلى استضامة حالك . لا عن دلالة تقيمها . وتظهرها . ولا عن حجة تتدلى بها ، وتذكرها ، الا ارادة أن يتداول الناس دعواك ، ويتفاوضوا شكواك . فيخيل في نفوسهم ، ويقرر في قلوبهم أن لك رخصة فيما ارتكبته ، وفسحة فيما اجتنبته . ويا لله لو كانت التهمة منك بنا واقعة . لكانت طاعتك لنا أزين من مخالفتنا . كيف وعلام الخفايا ، والغيوب . والمطلع على الضمائر في القلوب ، يشهد عليك باستحالة ما تذكره ، ويناقض ما تضمره . ولو كان « أمير المؤمنين »

يريد بك سوءاً ، ويبغي لك مكروهاً ، لكان مرامه أيسر ، وطريقه أحضر ، ولأخذك جهراً ، وأسرك قهراً ، ولم يراقب فيك أمراً . فإن الله تعالى قدره ، ولله تعالى القدرة التي لو رام بها البر لأغرقه ، أو البحر لأحرقه ، أو الجبل الراسي لدكدكه ، والفلك الدوار لأمسكه ، فإن نزلت عن مطية العصيان ، وخلعت خلعة الطغيان ، واستقلت عثرتك ، واستغفرت ذنبك ، وأتيت إلى باب مولاك ، ورجعت إلى آخرتك ، وأولادك . وجدته عليك عطوفاً وبك رؤوفاً ، ولعذرك ممهداً ، ولجريرتك متغمداً ، فينسحب ذيله على ذنوبك ، ويسبل ستره على عيوبك ، ويشملك أمانه الذي لابسه يوقى النار ، وتصرف عنه آفات الليل والنهار ، ويردك إلى سبيل وفائك ، ويعيد إلى أرضك صوب سمائك ، ويعطف عليك بالحفظ ، والاستقامة اليك ، والشح عليك ، ورفع الظنة عنك ، والقاء كلام الموحشين منك ، فيرد اقطاعك ، ورسومك ، ويراعي أمورك ، وحقوقك ، فتشتد أواخيك ، وتحمي نواحيك ، وتزاد على ما كنت تحويه ، وتعطي أكثر ما ترومه ، وتبتغيه ، وتكون في أيامه مرفهاً مبجلاً ، وفي دولته معززاً ، ومفضلاً ، مرفوعاً عن بذلة الخدمة ، محمولاً على جلالة الحرمة ، مسامحاً فيما تطلبه ، وتهواه ، مسوغاً ما تقترحه وتتمناه ، ومشفعاً

تلتمسه ، مجاباً إلى ما ترومه وتفعله . فإن أبيت إلا الإباء . والعلو . والجماح . والعتو . فما أهون انتسافك . وما أيسر اختطافك ، وما أقرب ما تلتف عليك الحبائل . وتحيط بك الغوائل . وتساورك المنية . وتحيط بك الأمنية . وقد أعذر من أنذر . والسلام على من أبصر . وفكر .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد نبيه . وآله الطاهرين .

— الحاكم بأمر الله

وهذا

مرسوم حاكمي بتولية « الحسين بن علي بن النعمان » القضاء في الدولة الفاطمية :

هذا ما عهد عبد الله . ووليه المنصور . أبو علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، للقاضي « حسين بن علي بن النعمان » حين ولاه الحكم بالقاهرة « المعزيّة » . ومصر . والاسكندرية وأعمالها ، والحرمين حرسهما الله تعالى . وأجناد الشام . وأعمال المغرب . وإعلاء المنابر . وأئمة المساجد الجامعة . والقومة عليها ، والمؤذنين بها ، وسائر المتصرفين فيها . وفي غيرها من المساجد . والنظر في مصالحها جميعاً . ومشارفة

دار الضرب ، وعيار الذهب ، والفضة ، مع ما اعتمده أمير المؤمنين ، وانتحاه ، وقصده ، وتوخاه ، من اقتفائه لآثاره ، وانتهائه إلى إيثاره ، في كل علية للدولة ينشرها ، ويحييها ، ودنية من أهل القبلة يدثرها ، ويعفيها ، وما التوفيق إلاّ بالله وإلى أمير المؤمنين عليه توكله في الخيرة له ، ولسائر المسلمين فيما قلده إياه من أمورهم ، وولاه .

أمره أن يتقي الله عز وجل حق التقوى ، في السر ، والجهر ، والنجوى ، ويعتصم بالثبات ، واليقين ، والنهى ، وينفصم من الشبهات ، والشكوك ، والهوى ، فإن تقوى الله تبارك ، وتعالى موئل لمن وئل إليها حصين ، ومعقل لمن اقتفاها أمين ، ومعول لمن عول عليها مكين ، ووصية الله التي أشاد بفضلها ، وزاد في سناها بما عهد أنه من أهلها فقال تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين » .

وأمره ألاّ ينزل ما ولاّه أمير المؤمنين (إياه) من الأحكام في الدماء ، والأشعار ، والأبشار ، والفروج ، والأموال (عن) منزلته العظمى من حقوق الله المحرمة ، وحرماته المعظمة ، وبيناته في آياته المحكمة ، وأن يجعل كتاب الله عز وجل ، وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء ، والمأثور عن أبينا

علي سيد الأوصياء . وآبائنا الأئمة النجباء – صلى الله على رسوله – وعليهم – قبلة لوجهه إليها يتوجه . وعلينا يكون المتجه . فيحكم بالحق ويقضي بالقسط . ولا يحكم الهوى على العقل . ولا القسط على العدل . إيثاراً لأمر الله عز وجل حيث يقول :

فاحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى . فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن تعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » .

وأمره أن يقابل ما رسمه أمير المؤمنين وحده لفتاه « برجوان » من إعزازه ، والشد على يده . وتنفيذ أحكامه . وأقضيته . والقصر من عنان كل متطاول على الحكم . والقبض من شكائمه . بالحق المفترض لله جل . وعز . ولأمير المؤمنين عليه ، من ترك المجاملة فيه ، والمحاباة لذي رحم . وقربى وولي للدولة أو مولى . فالحكم لله ، ولخليفته في أرضه . والمستكين له لحكم الله . وحكم وليه يستكين . والمتطاول عليه . والمباين للإجابة إليه ، حقيق بالإذالة . والنهوض . فليتق الله أن يستحي من أحد في حق له « والله لا يستحي من الحق » .

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية للمتحاكمين ، ويرفع عنه حجابه ، ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه ، ويقسم بينهم لحظه ، ولفظه ، قسمة لا يحابي فيها قوياً لقوته ، ولا يردى فيها ضعيفاً لضعفه ، بل يميل مع الحق ، ويجنح إلى جهته ، ولا يكون إلاّ مع الحق ، وفي كفته ، ويذكر بموقف الخصوم ، ومحاباتهم بين يديه موقفه ، ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديّان . « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها ، وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه » .

وأمره أن ينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع ، وبهم يقطع في منافذ القضايا ، ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافاً شافياً ، ويتعرف دخائلهم تعرفاً كافياً ، ويسأل عن مذاهبهم ، وتقلبهم في سرهم ، وجهرهم ، والجلي ، والخفي من أمورهم ، فمن وجده منهم في العدالة ، والأمانة ، والنزاهة ، والصيانة ، وتحري الصدق والشهادة بالحق ، على الشيمة الحسنى ، والطريقة المثلى (أبقاه) وإلاّ كان بالإسقاط للشهادة أولى ، وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله ، أو يرد شهادته ، ولا يقبله ، ليكون في الأمرين على ما يحد له ، ويمثله ، ويأمن فيما هذه سبيله

كل خلل يدخله . إذ كانت الشهادة أس الأحكام . وإليها يرجع الحكام . والنظر فيمن يؤهل لها أحق بالأحكام . قال الله تقدست أسماؤه :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » وقال تعالى :

« والذين لا يشهدون الزور . وإذا مروا باللغو مروا كراماً »

وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلي أموال الأيتام ، والوصايا . وأولى الخلل في عقولهم ، والعجز عن القيام بأموالهم . حتى يجوز أمرها على ما يرضي الله ووليه من حياطتها . وصيانتها من الأمناء عليها . وحفظهم لها . ولفظهم لما يحرم ، ولا يحل الله منها . فيبوأ عند الله بعداً . ومقتاً ، آكل الحرام ، والموكل له سحتا . . . قال الله تعالى :

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً . إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

وأمره أن يشارف أئمة المساجد . والقومة عليها . والخطباء بها . والمؤذنين فيها ، وسائر المتصرفين في مصالحها . مشارفة لا يدخل معها خلل في شيء يلزم مثله من تطهير ساحتها ، وأفنيتها . والاستبدال بما تبذل من حصرها في أحيانها .

وعمارتها بالمصابيح في أوقاتها . والإنذار بالصلوات في ساعاتها . وإقامتها لاوقاتها . وتوقيتها حق ركوعها وسجودها ، مع المحافظة على رسومها وحدودها ، من غير اختراع ، ولا اختلاع لشيء منها : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

وأمره أن يرعى دار الضرب ، وعيار الذهب . والفضة بثقات يحتاطون عليهما من كل لبس . ولا يمكنون المتصرفين فيهما من سبب يدخل على المعاملين بهما شيئاً من الوكس ، إذ كان بالعين . والورق تتناول الرباع . والضياع ، والمتاع ، ويبتاع الرقيق . وتنعقد المناكح . وتتقاضى الحقوق ، فدخول الغش . والدخل فيما هذه سبيله جرحة للدين ، وضرر على المسلمين ، يتبرأ إلى الله منهما أمير المؤمنين .

وأمره أن يستعين على أعمال الأمصار التي لا يمكنه أن يشاهدها بأفضل . وأعلم وأرشد . وأعمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه أمير المؤمنين في استعماله . قال الله عز وجل :

« إنا عرضنا الأمانة على السموات . والأرض . والجبال، فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولاً » .

هذا ما عهد أمير المؤمنين ، فارف بعهده ، تهتد بهاديه ، وترشد برشده ، وهذا ، أول مرة أمرها لك ، فاعمل بها . وحاسب نفسك قبل حسابها ، ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها :

« يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها . وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » .

« كتب في يوم الأحد لسبع ليالي بقين من صفر سنة ٣٨٩ هـ .

وهذا مرسوم « وقفية » الحاكم بأمر الله على الجامع « الأزهر » و « دار الحكمة » .

هذا كتاب أشهد قاضي القضاة « مالك بن سعيد بن مالك الفارقي » على جميع ما نسب إليه مما ذكر ، ووصف فيه من حضر من الشهود في مجلس حكمه . وقضائه بفسطاط مصر في شهر رمضان سنة أربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضي عبد الله ، ووليه المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة « المعزية » ومصر . والاسكندرية والحرمين حرسهما الله . وأجناد الشام ، والرقة ، والرحبة . ونواحي المغرب ، وسائر أعمالهن . وما فتحه الله ، ويفتحه لأمير المؤمنين ، من بلاد

الشرق ، والغرب ، بمحضر رجل متكلم ، أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة . التي يذكر جميع ذلك . ويحدد هذا الكتاب ، وإنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر « بالقاهرة » المحروسة ، والجامع « براشدة » والجامع « بالمقس » اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما . وعلى « دار الحكمة » بالقاهرة التي وقفها . والكتب التي فيها قبل تاريخ هذا الكتاب منها ما يخص الجامع « الأزهر » ، والجامع « براشدة » و « دار الحكمة » بالقاهرة المحروسة مشاعاً جميع ذلك غير مقسوم . ومنها ما يخص الجامع « بالمقس » على شرائط يجري ذكرها . فمن ذلك ما تصدق به على الجامع « الأزهر » بالقاهرة ، والجامع « براشدة » و « دار الحكمة » جميع الدار المعروفة بدار « الضرب » وجميع « القيسارية » المعروفة « بقيسارية » الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار « الخرق » الجديدة ، الذي كله « بفسطاط » مصر ، ومن ذلك ما تصدق به على جامع « المقس » جميع أربعة الحوانيت . والمنازل التي علوها ، والمخزنين الذي ذلك كله بفسطاط مصر « بالراية » في جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار « الخرق » وهاتان الداران المعروفتان بدار « الخرق » في الموضع المعروف « بحمام الغار » . ومن

ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التي بفسطاط مصر «بالراية» أيضاً بالموضع المعروف «بحمام الغار» وتعرف هذه الحوانيت بحصص «القيسي» بحدود ذلك كله . وأرضه وبنائه ، وسفله ، وعلوه ، وغرفه ، ومرتفعاته ، وحوانيته ، وساحاته ، وطرقه ، وممراته ، ومجاري مياهه ، وكل حق هو له داخـل فيه ، وخارج عنه ، وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة ، بتلة لا يجوز بيعها ، ولا هبتها ، ولا تملكها ، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة في هذا الكتاب ، لا يوهنها تقادم السنين ، ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ، ولا يتأول ، ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات ، حتى يرث الله الأرض ، والسموات ، على أن يؤجر ذلك في كل عصر من ينتهي إليه ولايتها ، ويرجع إليه أمرها . بعد مراقبة الله ، واجتلاب ما يوفر منفعتها ، من إشهارها عند ذوي الرغبة في إجارة أمثالها ، فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حساب المصلحة ، وبقاء العين ، وحرمته من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه ، وما فضل كان مقسوماً على ستين سهماً ، فمن ذلك للجامع «الأزهر» بالقاهرة المحروسة المذكور في هذا الإشهاد الخمس ،

والثمن ، ونصف السدس ، ونصف التسع ، يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ، ومصلحته وهو من العين «المعزّي» الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ، ونصف دينار ، وثمن دينار من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً ، ومن ذلك الثمن ألف ذراع حصر « عبدانية » تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك ، ومن ذلك الثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع في كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير ، ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج ، وفراخها اثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار ، ومن ذلك لثمن عود هندي للبخور في شهر رمضان ، وأيام الجمع مع ثمن الكافور ، والمسك ، وأجرة الصانع خمسة عشر ديناراً ، ومن ذلك لنصف قنطار شمع « بالفلفلي » سبعة دنانير ، ومن ذلك لكنس هذا الجامع ، ونقل التّراب ، وخياطة الحصر ، وثمن الخيط ، وأجرة الخياطة خمسة دنانير ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلاً بالرطل « الفلفلي » دينار واحد ، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد « بالفلفلي » نصف دينار ، ومن ذلك لثمن أردبين ملحاً للقناديل ربع دينار ، ومن ذلك ما قدر لمؤنة الناس ، والسلاسل ،

والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع أربعة وعشرون ديناراً، ومن ذلك لثمن سلب ليف ، وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار ، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقاً لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة ، وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ، ولثمن مائتي مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد ، وربع دينار ، ومن ذلك لثمن ازيار فخار تنصب على المصنع ، ويصب منها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير ، ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل ، مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأرزاق المصلين يعني الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة ، وخمسة عشر مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف ، منها للمصلين ولكل رجل منهم ديناران في كل شهر ، ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع في كل سنة أربعة وعشرون ديناراً ، ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ، ونقل ما يخرج منه من الطين ، والوسخ دينار واحد ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه في هذا الجامع في سطحه ، وأترابه ، وحياكته ، وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون ديناراً ، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ، ونصف حمل جارية لعلف راسي بقر للمصنع الذي لهذا الجامع ثمانية

دنانير ، ونصف ، وثلث دينار ، ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فوانين قرط لتربيع راسي البقر المذكورين في السنة سبعة دنانير ، ومن ذلك لأجرة متولي العلف ، وأجرة السقاء ، والحبال ، والقواديس ،وما يجري مجرى ذلك خمسة عشر ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر ديناراً ، وإلى هذا انقض حديث الجامع الأزهر ، وأخذ في ذكر جامع « راشدة » ، و «دار العلم» و «جامع المقس» ثم ذكر أن تنانير وتسعة وثلاثين قنديلاً فضة ، فللجامع «الأزهر» تنوران ، وسبعة وعشرون قنديلاً ، ومنها لجامع « راشدة » تنور واثنا عشر قنديلاً ، وشرط أن تعلق في شهر رمضان ، وتعاد إلى مكان جرت عادتها أن تحفظ به ، وشرط شروطاً كثيرة في الأوقاف منها أنه إذا فضل شيء اجتمع يشترى به ملك فإن عاز شيئاً ، واستهدم ، ولم يفِ الربع بعمارته بيع ، وعمر به ، وأشياء كثيرة ، وحبس فيه أيضاً عدة آدر ، وقياسر لا فائدة من ذكرها فإنها مما خربت بمصر .

وهذا مرسوم بتعيين « داعي الدعاة » وتحديد ، وشرح مهامه ، وصلاحياته :

الحمد لله ما وقع تحت القياس ، والحواس ، والمتعالي

عن أن تدركه البصائر ، بالاستدلال ، والأبصار بالإيناس ، الذي اختار الإسلام فأظهره ، وعظمه ، واستخلص الإيمان فأعزه ، وأكرمه ، وأوجب بهما الحجة على الخلائق الذين نصبهم في أرضه أعلاماً ، وجعلهم بين عباده حكاماً . قال الله تعالى :

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » .

يحمده أمير المؤمنين أن اصطفاه لخلافته . وخصه بلطائف حكمته ، وأقامه دليلاً على مناهج هدايته ، وداعياً إلى سبيل رحمته ، ويسأله الصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي ابتعثه رحمة للعالمين . فأوضح معالم الدين . وشرع ظواهره للمسلمين ، وأودع بواطنه لوصيه سيد الوصيين . علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، وفوض إليه هداية المستجيبين . والتأليف بين قلوب المؤمنين . ففجر ينابيع الرشاد ، وغور ضلالات الإلحاد ، وقاتل على التأويل كما قاتل على الرسل ، حتى أنار ، وأوضح السبل ، وحسر نقاب البيان ، وأطلع شمس البرهان ، صلى الله عليهما ، وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الأديان ،

وأعلام الإيمان ، وخلفاء الرحمن ، وسلم عليهم ما تعاقب الملوان ، وترادف الجديدان .

وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الإمامة ، والأئمة ، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين ، يعلن إقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه ، وخلصائه ، وتغذية أفهامهم بلبانها ، وإرهاف عقولهم ببيانها ، وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوقيفهم من علومها على ما يلحب لهم سبل الرضوان ، ويفضي بهم إلى روح الجنان ، ورَيح الحنان ، والخلود السرمدي في جوار المنّان — ما يزال نظره مصروفاً إلى نوطها بناشيء في حجرها ، مغتذٍ بدرها ، سارٍ في نورها ، عالم بسرائرها المدفونة وغوامضها المكنونة ، موفراً على ذلك اختياره ، وقاصية انتقاده ، حتى أداه الاجتهاد إليك ووقفه الارتياد عليك ، فأسندها منك إلى كفئها وكافيها ، ومديرها المبرز فيها ، ولسانها المترجم عن حقائقها الخفيّة ، ووقائعها المطوية ، ثقة بوثاقة دينك ، وصحة يقينك ، وشهود هديك وهداك ، وفضل سيرتك في كل ما ولاك ، ومحض اخلاصك ،

وقديم اختصاصك ، وأجراك على رسم هذه الخدمة في التشريف ، والحملان ، والتنويه ، ومضاعفة الإحسان .

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعراً للتقوى ، عادلاً عن الهوى ، سالكاً سبيل الهدى ، فإن التقوى أحصن الجنن ، وأزين الزين ؛ و « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن » فإن الله تعالى يقول : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » وحض على ذلك فقال سبحانه : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً وقال : إنني من المسلمين » .

وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك إخلاصه ، ويقينه ، ويصح عندك عفافه ، ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه ، فإن الله تعالى يقول :

« واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً » ويقول جل من قائل :

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » وكف عن كافة أهل الخلاف ، والعناد ، وجادلهم باللطف ، والسداد ، واقبل

منهم من أقبل إليك بالطوع ، والانقياد ، ولا تكره أحداً على متابعتك ، والدخول في بيعتك ، وإن حملتك على ذلك الشفقة ، والرأفة والحنان ، والعاطفة ، فإن الله تعالى يقول لمن بعثه داعياً إليه بإذنه ، محمد صلى الله عليه وسلّم «وما أكثر الناس ، ولو حرصت بمؤمنين» .

ولا تلقّ الوديعة إلاّ لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلاّ في مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك ، والشبهات إلى نور البراهين ، والآيات ، واتلو عليهم مجالس الحكم التي تخرج إليك في الحضرة على المؤمنين ، والمؤمنات ، والمستجيبين ، والمستجيبات ، في قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالقاهرة «المعزيّة» ، وصن أسرار الحكم إلاّ عن أهلها ، ولا تبذلها إلاّ لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع ، والعقول ، ودلّ على اتصال المثل بالممنون ، فإن الظواهر أجسام ، والبواطن أشباحها ، والبواطن أنفس ، والظواهر أرواحها ، وإن لا قوام للأشباح إلاّ بالأرواح ، ولا قوام للأرواح في هذه الدار إلاّ بالأشباح ، ولو افترقا لفسد النظام ،

وانتسخ الإيجاد بالإعدام ، واقتصر من البيان على ما يحرس في النفوس صور الإيمان ويصون المستضعفين من الافتتان ، وأنمّ عن الإثم ظاهره ، وباطنه ، وكامنه ، وعالته ، فإن الله تعالى يقول :

« وذروا ظاهر الإثم ، وباطنه » .

واتخذ كتاب الله مصباحاً تقتبس أنواره ، ودليلاً تقتفي آثاره ، واتله متبصراً ، وردده متذكراً ، وتأمله متفكراً ، وتدبر غوامض معانيه ، وانشر ما طوي من الحكم فيه ، وتصرف مع ما حلله وحرمه ، ونقضه ، وأبرمه ، فقد فصله الله ، وأحكمه ، واجعل شرعه القويم الذي خص به ذوي الألباب ، وأودعه جوامع الصلوات ، ومحاسن الآداب ، سبباً تتبع جادته ، وتبلغ في الاحتجاج محجته ، وتمسك بظاهره ، وتأويله ، ومثله ، ولا تعدل عن منهجه ، وسبله. واضمم نشر المؤمنين ، واجمع شمل المستجيبين ، وارشدهم إلى طاعة أمير المؤمنين ، وسوي بينهم في الوعظ . والإرشاد ، والله تعالى يقول في بيته الحرام « سواء العاكف فيه والباد » وزد لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول ، وما يظهر لك من جودة المحصول ، ودرجهم بالعلم ، ووف المؤمن حقه من الاحترام ، ولا تعدم الجاهل عندك قولاً

سلاماً كما علّم رب السلام ، وتوخ رعاية المؤمنين ، وحماية المعاهدين ، وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الإيمان ، والدين وألن لهم جانبك ، واجن عليهم والطف ، وابسط لهم وجهك واقبل إليهم واعطف ، فقد سمعت قول الله تعالى لسيد المرسلين :

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » .

ولا تفسح لأحد منهم في التطاول بالدين ، ولا الاضرار بأحد من المعاهدين ، والذميين ، وميزهم بالتواضع الذي هو حلية المؤمنين ، وإذا ألبس عليك أمر وأشكل ، وصعب لديك مرام وأعضل ، فانهه إلى حضرة الإمامة متبعاً قول الله تعالى :

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . وقوله :

« فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله ، واليوم الآخر ذلك خير ، وأحسن تأويلاً » .

ليخرج إليك من بصائر توقيفها ، ومراشد تعريفها ما يقفك على مناهج الحقيقة ، ويذهب بك في لاحب الطريقة ، واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والجزى ، والأخماس ، والقربات ، وما يجري هذا المجرى ، وتتقدم إلى كاتب

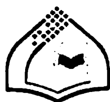
الدعوة بإثبات أسماء أربابه ، واحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ، ووصوله إليه ، وتبرأ ذممهم عند الله منه ، واستنب عنك في أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ، ومن تثق بديانته ، وتسكن فيه إلى وفور صناعته ، واعهد إليهم كما عهد إليك ، وخذ عليهم كما أخذ عليك ، واستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ، ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته ، واستخدم كاتباً دينياً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً ، حقيقاً بالاطلاع على أسرار الحكمة التي أمر الله بصيانتها ، وكتمانها عن غير أهلها ، نقياً حصيفاً لطيفاً نزلهم في مجلسك بحسب مراتبهم من العلم ، والدين والفضل.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدبره متبصراً ، وراجعه متدبراً ، وبه الوصايا تهدى ، وتسدد ، وتوفق ، وترشد ، واستعن بالله يمدك بمعونته ، ويدم حظك من هدايته ، إن شاء الله تعالى.

فهرس الموضوعات

مصادر البحث التاريخية

تاريخ الدولة الفاطمية – حسن إبراهيم حسن ١٩٥٨
الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية ،
حسن إبراهيم حسن ١٩٣٢
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ،
حسن إبراهيم حسن . ١٩٤٦
النظم السياسية بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن ، حسن
إبراهيم حسن . ١٩٣٩
عبيد الله المهدي بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٥
المعز لدين الله بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٧
كنوز الفاطميين ، زكي محمد . ١٩٣٧
تاريخ جوهر الصقلي . علي إبراهيم حسن . ١٩٣٣
في أدب مصر الفاطمية ، محمد كامل حسين ١٩٥٠
الصليحيون ، حسين همذاني ١٩٥٥



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المصادر الأجنبية

The Alleged - Founder of Ismaïlism - Bombay - W Ivanow - 1946 .

The Origins of Ismaīlism : B. Lewis .

The Quaddahid Legend : Abbas Hamdani .

Mémoires sur les Quarmates de Bahrein et les Fatimits - Leyden - 1886 (De Goeje) M.G

Polimics on the origin of the Fatimis - Caliphs - (Prince - Mamour - London 1934) .

Fatimid - Decrees - Stern - S.M. London .

Quelques Chroniques Anciennes aux derniers Fatimides 1937 .

L'impérialisme des Fatimides et leur propagande (1942-1947) .

Essaie sur l'histoire des Ismailiens de la Perse : (Deıremery, M.C.)

Fragments relatif à la Doctrine des Ismailis - Hamdani , Paris , 1874 .

Studies in The Early Persian Ismaïlism - Leiden - 1948 .

The rise of the Fatimids - (Calcuta,) 1942. W.Ivanow

A Guide to Ismaïli Literature:London,1933.W.Ivanow

A short history of the Fatimid Khalifate - London (1923).

Description du Maghreb — Leiden 1860.

The letters of Al Mustansir — School of oriental of London 1934.

En Quête aux pays du Levant — « M. Barrès ».